" دِرَاسَة وتَحْلِيل "

لنماذج من المنحي الوجداني النبيل
في
الشعر الإنجليزي

إعـــداد:

الدكتور / عبدالله محمد مهران

الأستاذ المساعد بكلية البنات الإسلامية ـ بجامعة الأزهر

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

انبهر ميدان الأدب في المجتمع الغربي، وفي بعض الأوساط الأدبية العربية[1] بالشعر الإنجليزي الوجداني ،المتمرد على القيم، والمتحرر من كافة القيود ، والثوابت الفنية والفكرية ، وأخذت أبواق الدعاية الموجهة . هنا وهناك . في نشره ، والْحَضْ على الاحتذاء به ، والسَّير على نهجه ، وحَفِلت بعض الصحف بترجمة نصوصه.

هذا وفي المقابل لم يَلْتفِت إلى المنحى الوجداني المُحْتَوِي على الْقِيَم السامية في الشعر الإنجليزي أَحَدٌ من النُّقاد الذين يُعْتد بهم في الميدان الأدبي ، وذلك رَسَّخ في الأذهان عند الكثير من المهتمين بالأدب خلو الشعر الإنجليزي وسَاحَته الفسيحة من الشعر الوجداني النبيل ، وقد سَوْغ ذلك الرُسُوخ للعديد من النقاد في العالم العربي التحذير من الشعر الإنجليزي الوجداني والابتعاد عنه ، وَتَجَنُّب التأثر به ، لما ينطوي عليه من التحرر، ولما يسود فيه من التَّفَسُّخ الأخلاقي الهادم لِكيَان النُّبل الإنساني ، وَصَرْح الخُلُق القَويم الذي يُتَوِّج آدَمِيَّتَه.

وكل ما سبق جعلني أطرق باب البحث في ميدان الشعر الإنجليزي الوجداني السامي تحت عنوان:"دراسة وتحليل للمنحى الوجداني النبيل في الشعر الإنجليزي".

والبحث المذكور يقع في مقدمة ، وتمهيد ، وثلاثة فصول ، وخاتمة ، وثبت بالمصادر والمراجع ، وآخر بالموضوعات .

وفي المقدمة جاء الحديث عن البحث وخطته.

وتناول التمهيد فكرة الموضوع بوجه عام.

---

(١) النقد الأدبي ومدارسة الحديثة "ستانلي هايميد" ـ ترجمة محمد يوسف نجم دار الجيل بيروت ،

وتحدث الفصل الأول: عن النص الشعري الإنجليزي الوجداني من خلال معطيات الطبيعة وبعض مفرداتها .

وكشف الفصل الثاني: عن الشعر الوجداني السامي من خلال النماذج البشرية، وسلوك الأحياء تجاه معطيات الحياة وبعض أحداثها .

وأوضح الفصل الثالث: الظواهر الفنية التي تَمَيَّز بها المنحى الوجداني النبيل في الشعر الإنجليزي ، وكشف عن كُنْهها من خلال مُعْطيات النقد ومُصْطلحَات النقاد السائدة في المجتمع الأدبي الإنجليزي.

وأبرزت الخاتمة أهم النتائج التي وردت في البحث.

وكشف ثبت المصادر والمراجع عن "المصادر والمراجع" التي تم الاعتماد عليها ، والنهل من محتوياتها في سبيل إعداد البحث على هذه الصورة.

وجاء في النهاية ثبت الموضوعات الذي يسهل الرجوع لمحتوى البحث ومكوناته.

والله الموفق

التَّمْهِيدْ

المجتمع الغربي في العصر الحديث، من المجتمعات الإنسانية التي قدمت للإنسان في الميادين المختلفة ما يحقق الآمال ،ويُلَبِي رغبة الطموح البشري في عالم المخترعات الحديثة المذهلة، ولم تختلف على ذلك وجهات النظر؛ لأن الواقع يدفع للتسليم بها، ويَدْحض أدنى اختلاف في اثباتها.

وفي الجانب الأدبي والأخلاقي ، نظر الناقد العَرَبي إلى النتاج الأدبي والسلوك البشري السائد في هذا المجتمع الغربي وانتهى إلى شيوع ظاهرة التحرر الأخلاقي والتمرد على القيم في ميدان الأدب شعره ونثره .

وقد أيد هذا التحرر بعض النقاد، وانبهر بشيوعه، ونادى بالاحتذاء به، والسير في ركابه[1] ورأى في تَرَسُّمِهِ سبيلا للتطور وطريقاً للتَّربع على عرش القمة الأدبية التي تدفع بالنتاج الأدبي العربي إلى بَوْتقة الآداب العالمية.

وفي الجانب الآخر عارض الكثير من النقاد الاحتذاء بالأدب الغربي المتحرر، المُرَوِّجْ للرذائل التي يندد بها المجتمع العربي ،والمجتمع الإنساني المحافظ [2].

وقد خص النقد العربي الأدب الإنجليزي بالنظرة الفاحصة المدققة في مُعْطياته ورأى فيه خلْوا من النتّاج الشعري الذي يترجم عن الغايات والسمات النبيلة التي يَعْتَدُّ بها الكثير في المجتمعات الإنسانية .

وكان موقف النُّقاد العرب من ظاهرة التحرر في الأدب الإنجليزي منقسماً أيضاً إلى قسمين:حيث يرى القسم الأول: ضرورة الاحتذاء بالشعر الإنجليزي المتحرر في الشكل والمضمون[3]:

---

(١) ملف نادي الطائف الأدبي ص ٧٤ـ المطبعة الأهلية في جدة ١٦٨٦، ويراجع كتاب القيم الروحية في الشعر ص٩٧د/ ثريا ملحس . دار الكتاب اللبناني بيروت ط٢. ١٩٩١

(٢) الأدب الإسلامي قضية وبناء ١٧١د/ السيد أحمد خليل . عالم المعرفة . بيروت .١٩٨٣،وكتاب نحو نظرية للأدب الإسلامي ١٢٧ـ د/ محمد أحمد حمدون . دار الفن . جدة بدون تاريخ

(٣) نشأة النقد الأدبي الحديث في مصر ص١٥٥ـ د/ عز الدين الأمين . دار المعارف بمصر ١٩٧٠م

بينما يرى القسم الثاني.. ضرورة تجنب الاحتذاء بالشعر الإنجليزي المتحرر، لأن في الاحتذاء به جناية على المجتمع المحافظ وقيمه، ودعوة للتفسخ الأخلاقي والتحلل من القيم وثوابت المجتمع المُسْتَسْقاة من العقائد(١).

وقد عُرضت للمناقشة قضية خلو الشعر الإنجليزي من القيم التي يُعْتز بها لدى الكثير في المجتمعات الإنسانية الراقية والمحافظة .

ونَقلت بعض القنوات الفضائية ما دار حول هذه القضية.

ومما ورد في بعض المناظرات المنقولة عبر هذه القنوات ما يلي(٢) :

"الأدب الإنجليزي شعره ونثره لا يعبأ بالقيم ،ولا يعنيه غير الانحراف ،والتمرد على المثل العليا، والخروج على كل صياغة فنية ثابتة ، ويرجع السبب في ذلك ما يسود في هذا المجتمع من انحراف وتحلل وتفسخ في القيم والأخلاق، تحت أعين الأنظمة في السر والعلانية".

ويستطرد المُناظر في حديثه فيقول:

"ومما يبرهن على ما ذهبنا إليه الدعوة الدائمة للكثير من النقاد الإنجليز التي تدعم الخروج عن كل مألوف، وتساند التمرد على كل ما هو ثابت ،وتشجع الكاتب المارق الخارج في كتابته عن الأصول المرعية.

ولم تقتصر هذه المساندة على النقاد، وإنما قامت بمساندة الأديب المارق والفرد المنحل الجهات الحكومية المختلفة في المجتمع الإنجليزي، هذه الجهات التي عملت على تعضيد المتمرد وحمايته،بل والإشادة به، وتشجيعه على المزيد من النتاج الكاشف عن أصالته في التمرد والمروق".

"ويقول المُناظر "ومما يؤكد على ما ذهبنا إليه حماية الحكومة الإنجليزية للكاتب "سلمان رشدي" هذا الكاتب المارق الذي ألف رواية تحت عنوان"آيات شيطانية" هذه الرواية التي تم بسبب ما فيها من الانحرافات والمروق، والاستهتار بالقيم والاستهزاء بالثوابت اسْتِنفار المجتمعات الإنسانية والتوجه إلى

(١) متى يعود الأدب إلى أصالته ص ٥٨ . أنور الجندي .

(٢) جرت "المناظرة" المشار إليها على قناة "الواحة" الفضائية ١٥ رمضان ١٤٢٨هـ والمناظر هو المفكر العالمي . أحمد داييت . ومكان المناظرة في "لندن"

مهاجمته والتصدي له، بل وصل الأمر بدولة من الدول إلى إهدار دمه، والسعي إلى قتله"ورصد الأموال التي تشجع على مُتابعة وتنفيذ ذلك.

وهذه الرواية تتناول المجتمع الإنجليزي وتشيد بتحرره من القيم التي يقرها الكثير من المجتمعات على مر العصور ،وفيها يخص "سلمان رشدي" ملكة انجلترا بالذكر ويشيد بتحررها المطلق هذا التحرر الذي دفعها إلى ممارسة "الرذيلة" مع الآخرين الأمر الذي يجعلها تعترف بالابن غير الشرعي، وتوفر له كافة سبل الحياة.

ويشطح المؤلف في روايته عندما يزعم أنه هو شخصيا على علاقة"بالملكة".

ولا نريد أن نستطرد لكل ما ورد في الرواية مما يخص سلوكيات المجتمع الإنجليزي التي لا تتوافق مع القيم الإنسانية في كثير من الدول، وإنما يكفينا ما ذكرناه لنبرهن ونؤكد على أن الأدب الإنجليزي لا يعبأ بالقيم ،ولا يقيم لها وزناً ،ولا يرى في التمرد عليها عيباً ،وربما يعتبره مَيْزة، وذلك هو السبب الأساسي الذي جعل المجتمع الإنجليزي الشعبي منه والرسمي يرحب بمحتوى رواية"رشدي" المارقة التي تحتقر كل قيم الحياة ،وتزدريها، وتصف "الملكة" بصفات تنْفرُ منها النفوس النبيلة، وينسب إليها أفعالاً يخجل منها العام والخاص في الكثير من المجتمعات الإنسانية الضاربة في التَّحَضْر بجذورها.

هذا ما انتهى إليه المناظر من النتائج.

وأعتقد أن "المُناظر" الغيور على القيم الإنسانية ، والمُسَلمَات العقدية السائدة في المجتمعات الإنسانية معه الحق في التنديد برواية الكاتب "سلمان رشدي" لما فيها من الحماقة والهمجية والقبح،والتَّجَني على الأخلاق وزعماء الإصلاح،والسخرية من الأنبياء ورسالاتهم التي أضاءت دروب البشرية ورسمت للإنسانية الطريق السوي.

ونحن من جانبنا لا نقيم وزناً لهذه الرواية،ولا نعْتد بكاتبها الفاقد لكل القيم في الحياة.

ومع ذلك ،ومن خلال ما عرضه المناظر الغيور، ومن لفَّ لفَّه فإنه يمكن القول بأن ما توصل إليه من النتائج الموجهة إلى الأدب الإنجليزي والتي من أهمها الحكم على هذا الأدب بالخلو من النماذج الشعرية والنثرية الهادفة للقيم السامية، والغايات النبيلة، قد تجاوز حَدَّ الحكم العلمي السديد، ومرجع ذلك

يكْمُن في أن ذلك الحكم لا يأتي إلا بعد دراسة مستفيضة للأدب الإنجليزي بكافة اتجاهاته الفكرية والفنية، ثم الخروج بالنتيجة التي تفرضها الدراسة ويَقتنع بها المتلقي من خلال مُعطياتها الملموسة لديه.

فهل قام هذا المفكر "المُناظر" بهذه الدراسة، وانتهت به إلى النتيجة التي عرضها على الجمهور في مناظرته، إن كان ذلك قد تم فإن ما قد وَصَلْتُ إليه في هذا البحث يطعن في هذه النتيجة وينال منها.

وإن لم يكن قد قام بدراسة كاملة شاملة للأدب الإنجليزي وأطلق رأيه السابق التي يحمل النتيجة المشار إليها فإن رأيه يفتقد القيمة ويبتعد عن الصواب.

وعلى أساس كل ما تقدم طرق البحث باب الشعر الإنجليزي على أمل أن يجد فيه نماذج وجدانية نبيلة، ترقى بالمجتمع وتدفع به إلى التقدم والارتقاء.

ومن خلال البحث وعلى ضوء الهدف المذكور، استطاع البحث – بفضل من الله وبتوفيق منه – أن يجمع النماذج التي تُكَوِّنُ مَنْهَجه وتصل به بعد الدراسة التحليلية والموضوعية إلى الغاية المرجوة، على أمل أن يتحقق منه الهدف المنشود.

الفصل الأول
النص الشعري الوجداني من
خلال معطيات الطبيعة

ارتبط العديد من الشعراء الإنجليز بمفردات الطبيعة ، وتأمل الكثير منهم معطياتها ، وتناول البعض مظاهرها المتنوعة في نماذج عديدة،وكشف من خلال بعض قصائده في هذه الظواهر عن مكنون وجدانه المهذب،وهزات مشاعره السامية وجيشان عاطفته النبيلة،وتموجات أحواله،وخلجات أحاسيسه الناجمة عن تقلبات أحوال الحياة وصروفها المتنوعة عليه،والمؤثرة على مسلكه.

وسنعرض بعض النماذج الشعرية التي تكشف عن كنه هذا المنحى.

ومن النماذج التي يتجلى فيها ذلك بوضوح هذا النموذج الذي يقف فيه"جوزيف وارثون"[1] أمام نماذج من معطيات الطبيعة فيمور وجدانه، وتتأجج أحاسيسه،وتتوهج مشاعره فيسارع إلى الاندماج فيها،وينتقل للمتلقي هزات وجدانه،نحو هذه المفردات،ويصور مدى إعجابه بتلك المعطيات.

يقول الشاعر في هذا الصدد ما يلي[2]:

رَبْوَةٌ قمتها صِفْصَافَةٌ
تَرُوقُنِي
رَوْضَةٌ في غَابَةٍ تَأْسُرُنِي
رَبْوَةٌ ضَارِبَةٌ من فوق تلٍ صَاعِدٍ
ما بها مُنْحَدرٌ تَأْخُذُنِي
كُلُّ هَاتيك الرَّوابي والجبَال،والتِّلال والبحار والرمال
تلهب الإحساس بالشعر النبيل.
أين ؟ أين من يأتي بشيء مثلها

(١) الشاعر جوزيف وارثون "من الشعراء انجلترا،نظم الشعر في سن مبكرة وحظي بإعجاب الكثير من الأدباء، ولقي شعره في بداية الأمر نقدا يميل إلى معارضة بعض توجهاته،ثم ما لبس أن أنس لشعره الناقد وآبدة الكثير من النقاد في توجهاته التجديدية.

(٢) من الشعر الإنجليزي ١٣٥– سبندر– ترجمة – صومائيل قزمان– مكتبة الأداب بيروت ١٩٦٢م

أو يُضَاهِي سَمْتها:أو يَقُول
إنني قد صُغْتُها
إنها من صُنع خلاَّق عظيم
من هنا كان الجمال والجلال
لكل هَاتيك الأمور
في العصر الذي نحيا به بل وفي كل العصور
إنها رمز الحياة وبقلبي قاطنة
إنها رمز المحبة والنفوس الصافية
إنها تُعطي بمَنٍّ وسَخَاء
للجميع أسود الوجه،وأبيضه سواء في للعطاء
كل من في الأرض يأخذ ما يريد من الهواء
دون إذن المُستبد الطاغية
دون مال يأخذ الأسود منه
وكذا الأبيض يأخذ ما يريد
إن هَاتيك الطبيعة للأوامر خاضعة،للنواهي مُذْعِنَة
منْ لَدُنْ رَبِّ السماء...سُخِّرَت بنظامٍ محكمٍ
وبه قد سُيِّرت،لا تَحِيد عن النظام ولا تَزِيد .
يا لها من آسِرة ... ... يا لها من آسرة
إنها من صنع خَلاَّق قدير.
****

وفي النص السابق يتجلى بوضوح تعلق الشاعر بالطبيعة ، ويظهر هيامه الشديد بها وتعلقه بالعديد من معطياتها،فهو معجب بالربوة المرتفعة،التي تتألق فوقها شجرة الصفصاف، ومأخوذ بالروضة الغناء التي تتخلل الغابات الكثيفة،وهو مولع بالجبال، ومشدوه برسوخها ، وصلادة بنائها ، وشدة تماسكها ، ومن العجيب الجميل والسامي النبيل أن يصل به تأمله في الطبيعة إلى تعزيز الإيمان في نفسه؛وذلك مما يلفت النظر في هذا المجتمع المتحرر من القيم في معظم سلوكياته،والبعيد عن مثل هذه الأفكار في الكثير من إبداعاته.

وفي النص تلحظ الخيال القائم على ترسيخ الحقائق في النفوس،وذلك هو ما نادى به النقد الإنجليزي وحفز عليه.

فالخيال الحق عند العديد من النقاد هو الذي يتوسل به الأديب لتعميق الحقيقة في نفس المتلقي لا أن يكون سبيلا للشطط بفكره، وطريقا للضَّبابية الدافعة للوَهم والشَّطح الفارغ من الهدف [1] .

وتظهر عاطفة الشاعر جياشة ونبيلة،وتبدو مشاعره جلية من خلال العبارات الناطقة بالمعاني،وعلى الرغم من وضوح الأفكار التي تترجم عنها الجمل الشعرية فإن المعاني التي تكشف عنها هذه الجمل عميقة وقوية.

هذا ولقد التفت الشاعر إلى معطيات الطبيعة وأضفى عليها من مشاعره ما يبث في نفس المتلقي المزيد من الإحساس بها والإيمان بمبدعها،ومن هذه المعطيات ((مجانية الهواء)) هذه المجانية التي تبعث في الكون الحياة،هذه المجانية التي لا يستطيع منحها للكون سوى الخلاق القدير.

وذلك الالتفات من ابتكار الشاعر،وإبداعه الذاتي الذي يُقدَّر عليه.

وإذا كان"جوزيف وارثون"قد وقف أمام العديد من معطيات الطبيعة في قصيدة واحدة فإن الشاعر"بايرون"[2] قد أخذه البحر وملك عليه زمام نفسه وسيطر على

---

(١) الصورة الشعرية في الغرب تأليف "سيسل دي لويس" ٦٨/ترجمة– أحمد نصيف – منشورات وزارة الثقافة والإعلام – العراق– ١٩٨٢م يراجع أيضا في هذا الشأن روابط الفكر بين العرب والفرنجة،ص٢٠ تأليف إلياس أبو شبكة ط ثانية ١٩٤٥.

(٢) شاعر إنجليزي معروف في الأوساط الأدبية الغربية،وبخاصة في وطنه الإنجليزي،نشأ في أسرة مفككة وتعلم وتثقف من أجل الهروب من الحياة البائسة التي وُجِد فيها بسبب تفكك أسرته وترك والده لأمه منذ مولده، وترك أمه له لتعيش حياتها مع رجل آخر غير والده لقد عاشت والدته حياتها كما تريد هي لا كما يريدها الشاعر في طفولته البريئة حيث تنقلت بين صفوف الرجال وتركت فلذة كيدها تعصف به ريح الحياة وتقلبات الأجواء بما يرضى وبما لا يرضى وقد هب الطفل صبيا وبلغ سن الرشد متعلما،وهنا وجد في الشعر راحلته وراحته فنظمه من قلبه ونبض حسه وعمق مشاعره وهنا اهتز له كيان النقد الأدبي وأصغى إلى عذب شعره ونوه بعبقريته فطفق = =ينظم المزيد وظل في دفقه بفكر عميق جديد ينبه به الغافل ويحرك به الساكن حتى جعله بعض النقاد في مقدمة الشعراء في عصره وظل في عطاء إثر عطاء حتى توفي عام ١٨٢٨م.

لُبِّهِ،وأسر فكره،وفؤاده فتوجه إليه،ووقف أمامه،وصادقه،وأخذ في مناجاته،واستطرد في خطابه،وجعل منه سبيلا للعظة،ووسيلة للاعتبار ؛واتخذ من أحواله المختلفة،طريقاً لغرس الأفكار النبيلة في ذهن المتلقي.

ومن أشعاره التي تكشف عن وجدانه تجاه البحر هذا النص الذي يقول فيه:

في رفقة البحر العميق
وسحر موسيقى الهدير الصاخب
الناس خِلاَّني ولكن الطبيعة لي خليل أقرب
ولَكَم أَفِيقُ من الحياة لأَخْتلي بالكوْن
في وَلَهٍ فَيَخْفِقُ بي الفؤاد خُفُوقاً
يعيا البَيَانُ به فَلَيْسَ يُطَاوِلُه
وأنا أَنُوءُ به فما أقوى علي كِتْمَانِهِ

ويعزف الشاعر على قيثارة وجدانه النبيل من خلال حديثه عن البحر فيقول:(١)

مُسْتَدْرِجٌ للمعتدي لِيَجُوسَ فوقك طافِياً
فَتُبِيدُهُ فُقَّاعَةً فُقَّاعَة
تَهْوي به للقاع،من غير قبر أو كفن
وَاهاً وما يدْري بمَهْلَكِهِ أحَد
فلا صوت "ناقوس" يدق لموته
لاَ ولاَ نَظْرَة وَدَاع يَحْظى بها جُثمانه أبدا
ولا قبر يضم رُفاته يُذكرنا به
ليظل مجهولا إلى الأبد

وفي النص السابق يتحدث الشاعر عن البحر حديثاً وجدانياً،مدفوعا بمشاعره، ورغبته الجامحة،في إهلاك المعتدي وإبادته من على ظهر البسيطة،وحرمانه من القبر الذي يضم رفاته ،ويُعرف به ويُذكر الأهل والخلان بموته،فالبحر في الواقع المشاهد لا يفرق عند ثورته بين المعتدي المستبد الطاغي بأسطوله فوق

(١) من الشعر الإنجليزي ٣١٢

صفحة الماء،والمزدهي بقوته على الضعفاء،وبين صائد الأسماك،المدقع الفقير،الذي يجوب بقاربه المتهالك هنا وهناك ليجمع من الأسماك ما يكفي قوت يومه،أو يسد رمق الجوع الذي يتملك أطفاله،ولكن إحساس الشاعر بقوة الظلم،وجبروت الاستبداد، واعتداء المعتدي على الحرمات،وتجرعه لمرارة القهر،وعدوان الطاغية في الواقع المعاش– كما تحكي سيرته – جعلت خياله يَنْسِبُ للبحر هذا الموقف من الإنسان المعتدي دون غيره،موقف الانتقام من الطغيان والتصدي له بكل قوة؛حتى يتم التخلص منه،ومن ذكرياته بل ومحوه من على ظهر الأرض حيا أو ميتا،واعتقد أن هذا الخيال وذاك التصوير يعكس أمل الشاعر في القضاء على المعتدي، والمستبد الطاغية و يترجم عن المأمول الذي يحرر الواقع الإنساني المعاش من قيد التسلط على الآخرين،والاعتداء على الضعفاء الذين لا حول لهم ولا قوة تدفع عنهم.

وذلك يكشف عن خصوبة الخيال الهادف، والموظف للكشف عن المعاني التي تمور بوجدان الشاعر، والموجه لبيان الإحساس الذي يملك عليه أقطار نفسه، ومشاعر حسه.

ويستطرد الشاعر في الحديث الوجداني عن البحر فيقول :[1]

وسهولك الزرقاء لم تك مغنماً للطامع
لو داسها المعتدي يوما بأقدام سرعان ما تَرْغِى
فَتَنْفِضُ عنك كل دخيل
وتفور تهزأ بالجبابرة الطغاة وبأسهم
وهم الأُلِي عبثوا بدنيا الأرض فهي حطام
****
تُلْقِيهِمُو بَدَدًا على الزَّبَد
تُلْقِيهِمُوا في مَرْفَأ أو في خليج دَانٍ
وَتَرُدُّهم للأرض مَثْواهم

(١) المرجع السابق٣١٤وما بعدها

وجميع أسلحة الدمار هَوَتْ
الكل بين يديك تقذفه على الثبَجْ
فعبابك الفوار ليس يبالي[1]

ثم يخاطب الشاعر البحر بقوله:[2]

فلْتصْطَفِقْ يا أيها البحر البعيد الغور
كم من ظَلُوم في عُبَابِك غارق
كم من أساطيل له هَزَأتَ بها
كم من أساطيل له حطمتها
وجعلت منها للهوائم مسكنا
وبسطت أنت يديك فوق الماء
****

ويظهر في النموذج السابق التفاعل الوجداني مع البحر، فالبحر في نظر الشاعر النابع من أحاسيسه يضم في عُبَابِه أساطيل الظَلَمة،ويحطمها بعد أن يهزأ بها ويجعلها مستقرا للهوام ، ومسكنا لحيتان البحر،وأسماكه المختلفة،ومن المعروف أن البحر لا يفرق عند زمجرته وثورته بين أسطول الظالم وسفينة المظلوم،بل يغرق كل ما يطفوا فوقه،وربما كانت سفينة المظلوم أسرع في الغرق من أسطول الظالم لأنها ضعيفة ولم تستطيع المقاومة مثل الأسطول الضخم والقوي الفخم ولكن وجدان الشاعر الصادق وإحساسه العميق بمرارة الاستبداد والظلم،جعل خاصية الإغراق والإهلاك التي يتحلى بها البحر عند فورته وثورته متسلطة على الظالم دون المظلوم،ومحطمة لأسطوله ومستهزئة بقوته.

ومن خلال تأمل النص السابق ودراسته يتضح لنا تأثر الشاعر بالطبيعة،وتملكها لزمام صداقته،وعلى الرغم من ذلك فالشاعر لم يكن انطوائيا على نفسه،منعزلا عن الناس بل هو اجتماعيا محبا لهم،ومصادقا للعديد منهم غير أن صداقته للطبيعة أوفر حظا وأقرب إلى قلبه من مصادقة البشر.

(١) المرجع السابق٣١٤وما بعدها
(٢) المرجع السابق ٣١٦

فالشاعر عندما يفيق من الحياة يختلي بالكون،ويتأمل معطيات الوجود فيخفق فؤاده لمفرداته،ويمور وجدانه بمظاهره ومعطياته.

ويخص الشاعر البحر بالنصيب الأوفر من مشاعره الفياضة ويراه مقربا للقلوب، مجيبا إلى النفوس عندما ينتقم من الظالم، وجيشه الجرار، فيمحوه من الوجود وينشرح صدر الشاعر لمسلك البحر الطَّامي الثائر الفائر، الذي يطوي العتاة البغاة، ويضم في جوفه الجنود المفسدين والظلمة المعتدين العابثين بالإنسانية ومجدها وحضارتها بغير وجه حق.

ويُعْجب الشاعر بالبحر لأنه لم يسمح لأحد بأن يجوس على صفحته الزرقاء بقدمه،ولأنه يطرد المعتدي الغاشم،ويهلك الدخيل ويُودِي بالجبابرة ويلقي بهم في عمقه،ويشتت جمعهم ،ويفرق شملهم ويبطل مفعول أسلحتهم الفتاكة التي تنشر الظلم ليسود الظلام ،وتدعم الفساد،وتحارب العدل في ربوع البلاد

وهذه الأسلحة هي التي يتوج بها الظالم ويظفر باللقب العظيم،ويحاط طفله بهالة من التقدير،والاحترام،والتوقير،ويعود الشاعر إلى التاريخ ليقف على بعض الدول التي قامت وزالت على شاطئيه وكان قيامها على الغطرسة الغرور،وزوالها بسبب الظلم والجور.

والدارس للنص الشعري السابق يلحظ أن "بايرون" قد تعامل مع البحر من منظور وجداني ذاتي لا من خلال الخواص الثابتة للبحر،فالشاعر كما يذكر تاريخ حياته عانى من الظلم والاستبداد ،والتعسف نحوه في بلده بانجلترا،حيث لفظه والده وانهمك في العربدة والفجور ، وتخلت عنه أمه وانهمكت في الملذات والشهوات الحيوانية مع أصدقائها وتعاملت معه زوجته بقسوة وتعسف ورفضه المجتمع الأدبي،وندد بنتاجه الداعي إلى الحرية في البداية؛خضوعا لوجهة النظر الرسمية التي تتحكم في تفكير الرواد، وتوجه دفة عقولهم طبقا لتوجه الدولة ورؤيتها السياسية أو الفكرية.

وقد تعسفت معه حكومة الدولة آنذاك؛لأنه يناهض التحكم وينديد بالظلم و الاستعباد وينفر من الجور والاستبداد .

وقد ضيق الاستبداد الخناق عليه وتعسف في التعامل معه حتى اضطر إلى الهجرة وترك هذه البلاد ،وكان في وجدانه رصيداً كبيراً لكره الحاكم المستبد،

وتعسفه وجوره،ومسلكه الفاسد تجاه الأفراد والجماعات والدول وكافة الشعوب المُنْهَكَة ، وعلى الرغم من النجاح الذي حققه في أوربا، والبلاد التي هاجر إليها، والشهرة الواسعة التي حظي بها نتاجه الشعري فإن وجدانه مازال فائرا وثائرا ضد قوى الاستبداد والطغيان في كافة الأماكن وسائر البلدان.

وقد اتخذ الشاعر من البحر سبيلا لسكب مشاعره،وتفريغ أحاسيسه الذي يلبي ثورته وهزات وجدانه النافر من الظلم والمكتوي بنار التعسف والجور ٠وقد وجد الشاعر في البحر القوة التي تثأر له وللبشرية جمعاء من الظالم والمستبد والطاغية المفسد في الأرض٠ولقد لعب الخيال الدور الكبير في إعداد النص وتصميم البناء٠

ويهتز وجدان الشاعر "شلي"[١] لصوت الريح العاصف،ولا يقف أمامها خائفا مرتجفا بل يتخذ منها رمزا للحرية التي ينشدها ، فالريح عند هذا الشاعر تثير مشاعره،وتترجم عن وجدانه الذي يكره القيود،ويتوق للحرية ويقول النص الشعري ما يلي:[٢]

أيتها الريح الصخوب الضارية
في كل فج تزْأرين
كم تبْعثين في الدُّنا دمارا
وكم حياة تبعثين
فليت شعري؟ هل لشعري تنصتين؟
ريح الخريف يا مرثية تنعي لنا عاما مضى
الليل مُطْبِقٌ كَقبَّةٍ على ضريحه العريض
هل أَصَخْتَ لِي يَا ريح؟هلا أَصَخْت؟
يا ليتني يا ريح لا أُكْبح مثلك
يا ليتني مثلك لا أُكْبح .....[٣]

****

(١) المرجع السابق صفحة ٢٩٥
(٢) المرجع السابق صفحة ٢٩٨
(٣) تراجع القصيدة صفحة ٢٩٢وما بعدها

وفي قصيدة "دعاء إلى ريح الخريف" التي اقتطعنا منها النموذج السابق، يكشف الشاعر عن إحساسه المتأجج بالحاجة الملحة إلى الحرية والتي لا تتحقق إلا بالقضاء على كافة ألوان الظلم والاستبداد،وفي القصيدة المذكورة يلتمس الشاعر من الريح أن تحرره من الحياة وقيودها التي تحد من انطلاقه إلى الأفضل ويأمل أن تحمله على جناحها كورقة خريف تدور معها في الفضاء،أو موجة بحر تداعبها فوق الماء، أو سحابة ترفعها في السماء.

والشاعر لا يقف عند هذا الحد بل يروق له أن يصبح ندا للريح،وهو لم يقف عند ذلك بل يمضي بعيدا فيطلب من الريح أن تكون له روحا تهيم بين جوانحه ليستمد منها القوة التي يُحرَّر عن طريقها كل أسير في المجتمع الظالم،وكل مُسْتَعبد في البلاد.

فالشاعر يتمثل في الريح روح الحرية والتحرر من القيود التي فرضها عليه المستبد الطاغية في زمن يسود فيه الظلم،ويعم فيه الجبروت،والتسلط والجور ،وتفتح فيه المعتقلات. وحتى هذه الأمنية لا تطفئ ظمأه، ولا تروي نفسه المتعطشة إلى الانطلاق والفكاك من التسلط ؛ لذلك يبوح إلى الريح بحقيقة رغبته الأصلية التي ترنو إلي الإتحاد معها والاندماج بها ليكون هو وهي في بوتقة واحدة ضد الجمود الفكري المثبط للتقدم،والمعوق للرقي ، و الداعم للفساد، والاستبداد ودعاة الاستعباد.

والقصيدة وما تحتوي عليها من أفكار تدور حول الكشف عن رغبة الشاعر في توفير الحرية له ولأبناء مجتمعه،ولم تكن الريح إلا وسيلة لتوصيل هذه الفكرة للمتلقي، وذلك حقق لها عنصر السمو ،وقد لعب الخيال دورا كبيرا في ترسيخ هذه الفكرة في الأذهان،وجاء لتوضيح المراد وغرسه في ذهن المتلقي.

والخيال في القصيدة وسيلة للوصول بالمتلقي إلى بيان فكر الشاعر ،وأمانيه هذه الأماني التي تكمن في أمنية واحدة وهي تملك ذمام الحرية وشيوعها في ربوع المجتمع الذي يعيش فيه [1].

(١) المرجع السابق ٢٩٤

هذه الحرية التي تكفل للمفكر الانطلاق بفكره البناء الذي يحقق للفرد ما يرنو إليه في المجتمع ويرد إليه حقوقه المسلوبة في كافة سُبل الحياة.

ويتجاوب "جون كيتس"[١] مع الكروان ويعبر عن أحاسيسه فيقول:

لست والله أعاني غِيرة
من نعيم أنت فيه سابح
بل أنا نشوان إن واتاك حظ
فملأت الكون شدوا وصياحا
هائما كالروح ما بين الغصون
أو كَسِرٍّ راحت الأشجار تفشيه إلى الظل نِجَاء
صادحا بالصيف تلقاه على الأفق غناء

****

آه لو أستطيع أن أنسى الوجود
تائها مثلك في الغابات عمرا
تائها طيلة عمري بين آفاق بعاد
فامض عنا في سماوات بعيدة
إنني ماض بِجُنْحِ الشعر (لا بالخمر مخدوعاً) إليك[٢]

****

لا أبالي إن عصاني الفكر أو ضُعْضِعَ مِنِّي
ها أنا ألقاك في الليل الرقيق
رُبما نَلْقَى سَوِيًّا
ذلك البدر على عرش الفَضَا مُتكئا
وَحَوَالَيْهِ بَدَا موكبه

(١) جون كيتس– شاعر إنجليزي موهوب حظي شعره بالشهرة بعد أن تعرض لضربات النقد في البداية عاش في أسرة متوسطة الحال وذاق مرارة اليتم في عمر مبكرة حيث مات والده وهو دون الثامنة من عمرة ومات أخوه الوحيد وتركته والدته وتزوجت وأصبح هو وحده في ميدان الحياة ومواجهة الصعاب.

(٢) ٣٢٦ المرجع السابق

من كوكبات ونجوم وشهب
ها أنا أصغي إليك
****

وفي النص السابق ينصت الشاعر الحزين الآسي القلق إلى صوت الكروان في الليل البهيم فيطرب لهذا اللحن،وذاك الغناء،وتلفه سعادة غامرة في هذه اللحظة على الرغم من فرط ألمه، وعمق حزنه الضارب في جذور حياته،فالشاعر كما تذكر سيرته تعرض لكثير من الضربات الموجعات منذ طفولته وحتى اعتلائه لقمة المجد الأدبي وامتطائه لصهوة الشهرة في المجتمع آنذاك وقد اتخذ الشاعر من "الكروان" سبيلا للتعبير عن آلامه وأحزانه وطريقا للكشف عما يمور بوجدانه ٠

يقول الشاعر في هذا الشأن : [١]

ما لقلبي يتنزى سقما
ولحسي بات يرعى الألما
أتراني قد شربت الموت سُما
أو رشفت الداء نارا حِمَما
غير أني والدجى قد لفني منه الظلام الحالك
لا ترى عيني من تحت أقدامي الزهور
أو على الأغصان فواح العبير
ألمس الفتنة لَفَّت كل عود كل نبت
من هنا أو من هناك
حتى الذي في الْقفْر تاه
وعروس الحسن ما بين مزاهير الربيع[٢]
والورود العاطرات انسكبت في الجو مِسكا
وانتشدت من خمرة الأنداء التي جالت بها عِرْقا فعِرْقا

(١) المرجع السابق ٣٢٧
(٢) المرجع السابق ٢٢٦

فترامى حولها سرب فراش هام في الصيف مع الليل طنينا
ها أنا أصغي إليك رغم آلامي وحُزْني
رغم آهاتي وظلمي...إنني أصغي إليك
أنت صوت الناس يا كر وان في وجه الظلوم الطاغية
أنت صوتي أنت أنسي في الصحاري النائية
ليت شعري!هل تَهَاوِيمِي رؤى يقظان
يا كروان أم حُلْم بجفن ناعس
وأنا ماذا دهاني هل هي
صحوة قد عشتها مع اللحن الجميل
أم هي بعض أحلامي السعيدة في منامي٠

ومن خلال عرض النص السابق نلحظ وجدان الشاعر الصادق، المترجم عن حسه بالألم الناتج عن تملك المرض لزمام أمره،وسائر مكونات جسده٠وتغلبه عليه بسماع صوت الكروان في الليل البهيم،الذي لا يرى فيه زهرة أو نبتة،أو شجرة من فرط الظلام٠وقد نقل الشاعر بحسه الشعري ما تمور به نفسه تجاه صوت الطائر وتجلى للمتلقي من خلال النص وجدان الشاعر المتفائل على الرغم من حدة الألم الذي ينهش سائر أعضاء جسده،الذي هَدَّهُ الهم والوصب،وكاد يفتك به،ويَكْمُن عنصر السمو الوجداني ونُبْلِه في التفاؤل وعدم الضجر،والتجاوب مع معطيات الطبيعة المبتهجة،وعلى رأسها الكروان وصوته العذب الجميل الذي يندفع إلى أذن الشاعر فيسكب فيه النغم الأخاذ الذي يبعد عنه الحزن ويدني منه الأمل،ويهون عليه الألم،ألم جَوْر قومه عليه،وظلمهم له وتعسفهم معه٠

وعندما يتملك الأسى والحزن أقطار الشاعر الإنجليزي "توماس جراي"[1] يتأمل لقطة مناسبة لحالته النفسية الآسية وتتمثل هذه اللقطة في زمن الغروب؛حيث

(١) توماس جراي من شعراء إنجلترا المقلين وعلى الرغم من ذلك فقد أعجب بشعره النقاد وبخاصة في كمبردج التي نشأ وتعلم فيها،تنقل في كثير من مدن إنجلترا،وحظي بشهرة أدبية في لندن في قرب نهاية عمره ٠

ينقل للمتلقي مشاعره عن طريق بعض معطيات الطبيعة وأحوالها في هذا الزمن الذي أوشك فيه النهار على الانتهاء.

ويظهر ذالك بجلاء في قوله التالي[1]:

ضاقت الدنيا بعيني واكتوى القلب بنار
عندما شَيَّعَ (الناقوس) بالحزن النهار
ومضى يخطو على العشب القطيع العَائدْ يتهادى في ثغاء
بينما أَنْدِبُ حظي العاثر بعد أن ضاع الهناء
وتخلى الصحب عني وانتهى عهد الوفاء
****
إنني أَرقُب الشمس على الأفُقْ رويدا تتوارى
والمَلا يغرق في الصمت الرهيب
ومَضَى الجمع وبقيت مع الليل وحيدا
لا أجد في الأذن صوتا قادما غير الطنين
من هوام حائرات،وسوى جَرْس رتيب من بعيد
جَرْس صوت البوم ينعق في الليالي المظلمات
شاكيا للنجوم الساهرات.
شاكيا عدوان غِرٍّ ودخيل
عَكَر الوحدة والصفو عليه
ومضى يَعْبثُ حول العش والحصن العتيق
وأنا يا بوم مَكْلُوم ومجروح الفؤاد ...
****

ومن خلال قول الشاعر"توماس جراي" السابق يتجلى بوضوح تأمل الشاعر لبعض معطيات الطبيعة في وقت يتناسب مع حالته النفسية الآسية،فالشاعر مجروح القلب، ومكلوم الفؤاد،وقد ضاقت الدنيا بعينيه وتأججت نيران الأسى

(١) المرجع السابق ٢٦٠

بمشاعره ولم يجد أمامه سوى وقت الغروب الذي يُشَيَّع فيه النهار إلى مثواه الأخير فيا له من تعبير شعوري كاشف عن خلجات حسه.

وقد استطرد الشاعر في عرض لقطات من مفردات الطبيعة ويتوسل بها للكشف عما يمور بوجدانه.

وعندما يتوجه الشاعر إلى المقبرة لزيارة الموتى يلتفت إلى الأشجار الوارفة، والزهور المتفتحة المغروسة حول سور المقبرة،ويتأملها فيثور إحساسه،وتهتز مشاعره ، وهنا يتساءل مستنكراً على الأحياء غرسهم للأشجار الضخمة التي تمتد جذورها إلى رفات الموتى فتتغذى على أجسادهم ، وتسارع في محو أثارهم التي لم يتبقَّ منها غير العظام النَّخِرَات.

يقول الشاعر في هذا الشأن ما يلي:(١)

هاهنا في ظل أشجار عتيقة،وارفات
جلس الابن ليحكي عن أبيه الذكريات
حول سور المقبرة زرعوا الأشجار الباسقات
أيها الإنسان رفقاً بالرُّفَات،والعظام النَّخِرَات
هذه الأشجار تتغذى من رُفات
كلما وارينا جسداً في التراب
****

انتشى الجذر وهرول للثَّرَى
وامْتَص ما بقي من الجسد الْمُهَان من الورى
وازدانت الأشجار واخضرت وهامت
وانتشت فَرْحَى بعد أن حظيت ونالت
قسطها من جسد كان في الدنيا مُصَان
****

ويستطرد الشاعر في تأمله لهذه الأشجار ويتساءل عن مدى أهميتها للميت حيث يرى هو ألا جَدْوَى من سَمَاقتها ، ويناعة أغصانها ، واخضرار أوراقها

(١) المرجع السابق٢٦١

،وتشابك فروعها، وتجمع العصافير عليها،واستقرار الأعشاش على هذه الأغصان.

فهذه الأشجار الباسقة في نظره تَضُرُّ بالْجَدَثِ وتُعَجل باندثار الجسد الْمُغَيَّب عن أعين الأحياء.

يقول الشاعر في هذا الشأن ما يلي : (١)

هذه الأشجار لا تنفع ميتاً

ليس يجدي لِلْمُغَيَّبِ شقشقات الطير في وقت الصباح....

ويهتز وجدان الشاعر النبيل وإحساسه الراقي بالقرية،وأحوالها المختلفة،كرمز للمكان الذي يحتوي على الكثير من مفردات الطبيعة، وينقل للمتلقي مشاعره الجياشة تجاه هذه المعطيات ،في حالة رخاء القرية، وفي حالة بأسها وشدتها وارْتِكَاسَة أهلها،وضياع رونق الحياة فيها ، فكل ذلك يدفع الشاعر إلى نظم الشعر المعبر عن إحساسه تجاه هذه التقلبات ،وتلك التحولات.

وسنعرض –إن شاء الله– بعض النماذج التي تكشف عن وجدان الشاعر تجاه القرية وتقلبات أمور الحياة عليها.

يقول الشاعر عن قريته في ماضيها الجميل ما يلي:(٢)

قريتي كم تِهْتِ في الماضي على الوادي جمالا

وعلى شطيك خِصْبٌ ونَماء

يملأن القلب حبا وسرورا

كم مشى فيك الربيع المزهر باسما قبل الأَوان

وتأنَّى الزهر في الصيف طويلا مُحْجِمًا عند الوداع

قريتي...يامرتع اللذات والأفراح أيام الصِّبَا

كم حلا لِيَّ كل يوم أن أُمنِّي

بِغَدي أَمْسي ويومي

ربما يحمل ليَّ الْغد شيئا جديداً

(١) المرجع السابق ٢٦٣

(٢) من الشعر الإنجليزي ١١٨

كل يوم كان في القرية لِيَّ يوما سعيدا
****
حينما كنا جماعات من الجد نَفيق
تحت أغصان وظل وجَنَى
كلنا فتيان جدٍ أو شباب تارة قد نلعب
أو شيوخ من بعيد نرقب
كلنا يمرح في فصل الربيع بل وفي كل الفصول
خفة تنثاب قفزا وصياحا
وفنون من ألاعيب الشباب
كُلَّما فَنَا مللنا جدد الفن فنونا
قريتي يا منبع الصحة والخيرات .. والنبع الأصيل
كل عيشي فيك بالبهجة صَدَّاح يُغني
هذه الأشجار والأنهار فَرْحى وتُغني
كلها حتى يد الفأس تَغنت
عند شق الأرض فرحى ..
قريتي يا بسمة الوادي الجميل المزهر
كل شيء فيك غضٌّ مُثمر يشرح القلب ويعطينا الجمال
****

وفي النموذج السابق تتجلى بوضوح مشاعر الشاعر نحو قريته،ومعطيات الطبيعة فيها ،وينظر من خلال وجدانه السعيد ،الدافع إلى الإشادة بالقرية، وسَرْد مفردات محاسنها وأثر ذلك على خلجات حسه.

فقريته كانت في الماضي تزدهي على الوادي، وتـَتِيه بجمالها الأَّخاذ عليه ،وعلى شطَّيها ؛حيث تنتشر في ربوعها الأزهار، والخضرة التي تملأ القلب بالسعادة والسرور.

وقريته الجميلة لها المكانة العظيمة في نفسه الشاعرة؛لأنها مرتع أيام صباه،والمستقر الذي قضى فيه مع أنداده أجمل أيام الحياة.

ويسترفد الشاعر الذكريات الأسِرة التي تأخذ بالألباب وتأسر القلب وتَسبي الفؤاد،ويعرضها على المتلقي.

ففي الذاكرة الشاعرة تظهر القرية ومرُوجِها، والكوخ الصغير الذي يحتل مكانه الجلل في عمق المشاعر،وخفقات القلوب،ويتجلى ماء الغدير الهادر،وموجه المتلاحق الذي لا ينقطع طوال الوقت ،هذا الماء الذي تُطرب له النفس، وتنتشي ،وها هي الطواحين التي تزأر على الدوام؛ لتعلن لأهل القرية عن استمرارية العمل الذي يقدم الخدمة للقرية وأهلها هذه الخدمة التي تتمثل في طحن الحبوب التي تمد الإنسان بالغذاء اللازم لمواصلة الحياة، وهذا هو الفأس الذي يشق الأرض التي تُغرس فيها البذور من شتى أنواع النبات لتدب الحياة من جديد على الأرض في نبات من هنا أو نبات من هناك .. وهذا هو صوت يده التي تغني ويُجَلْجل صوتها بالغناء الذي يعلن بداية الجد والكفاح ،الذي يجعل القرية دائمة الخضرة و كثيرة العطاء وعميمة الخير الوفير.

لقد كشف الشاعر من خلال القرية في الماضي الجميل الذي عاشه و عايشه وما فيها من محاسن عن مشاعره ،وهزات وجدانه تجاه هذه المعطيات.

هذا من جانب وفي جانب آخر يقود الحس الصادق والوجدان الباعث على التصوير الشاعر إلى التعبير عن المشاعر المؤثرة عندما تتبدل الأحوال في القرية وتتغير السمات،وتتبدل الصفات الجميلة،والمظاهر الآسرة فيها إلى عكس ما كانت عليه في الماضي ومعطياته الحسنة .

يقول الشاعر عن القرية بعدما أصابها الجدب وقتلها الإهمال،وضيَّع جمالها البوار، وسيطر عليها وعلى قاطنيها الظالم المستبد الانتهازي(صاحب المال)ما يلي:[1]

قريتي يا بسمة الوادي الجميل المزهر
ما لأفراحك قد وَلَّت وَغَابَتْ
وَيَدْ الباغي لمغانيك اسْتَبَاحت
طَوَّفَت أرضك وعن الخير أَشَاحت

(١) المرجع السابق١١٩

لم يعد جدولك الرقراق في نظري جميلا
بعد ما أضحى أسير الغاصب
وغناء الطائر الشَحْرُور قد أمسى عويلا
بعد أن طارده المستبد الظالم
صار في الروض غريبا
يَتنَادى،وغراب البين،ما بين بقاياك الْتِيَاعا
يَنْدبان الروض في بَثْ حزين مؤلم
الظلال الوارفات اليوم قد أمست يَبَابَا
وَنَمَا الطُحلب من فوق الجدار
وَعلا الكوخ نسيج العنكبوت
معلنا عهد الدمار
قد جفاك الأهل حتى الطفل لم يرع الذِّماما
كل أرض تسْرِع الخطو حثيثا للبوار
****

يا لهذا الزمن القلْبِ
اشترى الغاصب بالمال أرض القرية
طاردا فلاحها عَبْرَ الخلاء
حيث قام الظالم الجبار واحتل البِقاع
كالقذَى في العين يبدو في الضِّياعِ
وطوى بالمال أرضا صانها الفلاح جيلا بعد جيل
فعلا قَصْرٌ من المجد على أنقاض كوخ
وابتسام الأغنياء
من دموع الفقراء اعْتَصَرَ

و من خلال النص السابق تتضح مشاعر الشاعر الآسية،ويتجلى وجدانه الحزين بسبب ما أصاب القرية،وما حل بها من الخراب والدمار والبوار.
فالقرية التي كانت تموج بالحركة ،وتتبختر بحلل الجمال، وتزدهي بكثرة عطائها وخيرها الوفير الذي يدخل البهجة على قلوب البسطاء،أضحت قاحلة لا

زرع فيها يَدُر رِبْحا أو يطعم فماً ، ولا خضرة بها تسر الناظرين،لقد تحول الكوخ الصغير المعتمد على عطاء القرية الكبير ،وخيرها الوفير ،إلى قصر للمستبد الظالم،والغاصب الانتهازي البغيض، والجبار الذي استعبد الإنسانية الحرة،واشتراها بماله الوافر وأخضعها لجبروته، وجعلها طوع يديه على كره منها واضطرار ،وطرد الفلاح الحر الفقير من فوق ثراها،واستبدله بالعبد الذليل الخانع لأوامره المُلَبِي لرغباته .

ويقول الشاعر في هذا المعنى أيضا ما يلي:(١)

يا لعهد كان فيه الخير ،يزهو بُرْعما
ولساعات من اللهو البريء ملأت بهجتها القرية بشرا ورضاء
أشرقت في كل عين،وزهت في كل غصن
كلها قد ولت اليوم إلى شط بعيد
****

ويستطرد الشاعر في تصوير مشاعره عندما يشاهد القرية ويراها في سمت جديد، وزى غريب لا يتلاءم مع أصالتها التليدة،وعادتها السامقة التي تكشف عن الرقي في علاقة الإنسان بأخيه في الإنسانية ويثور وجدانه وتمور أحاسيسه الباعثة على نظم الشعر المعبر عن إحساسه بهذه اللقطة يقول الشاعر:(٢)

هذا هو الحسن الطبيعي كان في القرية يوماً
مشرقاً حلواً جلياً في بواكير الشباب
ومضى عهد الصبا والعمر ولَّى لمشيب
أين ذاك الحسن والمجد الأثيل
وليالي الأنس والحسن الجميل
كلها ذهبت وولت
حتى لَوْحَاتْ الْحَوَارِي والدُّرُوب
قد توارت وتلاشت
والمقاهي أغْلِقَتْ بعد أن غاب الرفيق

(١) المرجع السابق ١٢٠
(٢) المرجع السابق ١٢٢

مَقْصف القرية فيها قد تلاشى من هنا.
آه قد تلاشى!!وتلاشى
بعد أن كانت البسمة تعلوا كل وجه فيه شيباً أو شباباً
وبه السَّاسَة من أهل القرى صَالُوا وجَالُوا
بعيون سَاهِمَات
****

وهناك على الطريق عُلقت لوحات رسم فاتنة لعيون القادمين
وعليها لِعَبٌ مَرْسُومَة للاعبين
وَعِظات بَينات فُصلت للمؤمنين
كل ذا كان في الماضي القريب..
ثم وَلَى
****

وَمَضَات زَائِفَات ما اسْتطَاعْت
أن تصون الدار من غدر الزمان
****

هَوتْ الجدران وانهار البناء
جَفَّ نبْع الماء وانْدَاح الشقاء
وَتلاشت كل أركان المكان،وتلاشت!!
وكأنْ ما كَانَ عِزٌ أوعَلا لِلْعِز صَرْح
لَقَطَاتْ مُفْزِعَات للقلوب
دَامِيات للفؤاد
****

وفي النموذج السابق ينظر الشاعر إلى قريته في لحظة من الزمن فيراها قد تغيرت وتبدل سَمْتُها،ويسرد على المتلقي مفردات التغيير، ويكشف عن بعض مظاهره المؤثرة على قلبه والمسيطرة على جُلِّ تفكيره.
لقد ذهب الحسن وفر من الميدان الجمال، وودع المجد الديار،وضاعت ليالي الأنس العامرة بالرفاق، كل ذلك ولى وترك القرية وتولى.
ويستطرد الشاعر في عرض مظاهر الْفقْد ومفردات الْعَدَم الذي أَلَمَّ بالقرية.

لقد تَوارَت لوحات حَوَارِيها، وتلاشت دُروبها ومسالكها، ومعالم الطريق فيها ٠ وأغْلِقَت المقاهي والمقاصف التي كانت عامرة بقاطنيها.

وذلك يبعث في نفس الشاعر الألم ويلحق بها الاضطراب والشجن.

واعتقد أن النموذج السابق تسيطر عليه النزعة الوجدانية المؤثرة الناطقة بإحساس الشاعر تجاه مشهد فقْد الإحساس بالقرية، مَرْتع صباه بعد أن امتلكها ((الغريب)) بماله،وسيطر على كل من فيها بنفوذه ،وغَيْرَ وبَدْلَ معالمها العزيزة على نفسه الشاعرة.

وتمْلك الأشجان نفس الشاعر الناقد"ورد زرث"[1] وتتأجج مشاعره الآسية الناجمة عن بعض الأحداث التي ألمت به، وهنا لم يجد أمامه سوى مفردات الطبيعة التي يتوجه لها ،ويتأمل معطياتها ،وليأخذ منها ما يُسَلِّيه، ويبعد عنه الآلام، أو يُسَكِّنُها– إن صح التعبير– وتتجلى مشاعر الشاعر الآسية،في النص الشعري التالي الذي يقول فيه ما يلي[2]

كان يوما إذْ بَدَا الجدول فيه والخميلة.
والأراضي المعشبات كلها تبدو جميلة
وأَدِيم الأرض ،يعلوه البهاء
كل شيء لفه ضوء السماء بَدَا في العين جميلا
جِدة الأحلام فيها وَلَذَاذات الرُؤى
بَلْسمٌ للقلب في ظل الخميلة
كان يوما وتولى بعد وَأْد الأمنيات"
والضَّياع الْمُرْ في زمن الشَّتَات
فإذا سَرَحْتُ طَرْفِي اليَوم في تلك
الْمَجَالي في صباح أو مساء

(١) وردزورث شاعر وناقد أدبي معروف مثقف والسع المعرفة كتب شعرا موضوعيا ووجدانيا أعجب الكثير من النقاد وعلى رأسهم صديقه "كولردج" وكان لنقد الأديبة "دوروثي" دورا بالغا في استمرارية صداقته مع الناقد الأدبي "كولردج " حيث كانت تتناول شعرهما على صفحات الصحف والمجلات الأدبية آنذاك٠
يراجع كتاب شعراء عظام ص٤٧وما بعدها مكتبة فنون بغداد ١٩٨٥

(٢) المرجع السابق ص٤٩

لم أَجِدْ فيها جمالا!،لا!!ولا حتى الطيوفا
****

آه وَيْحها نفسي!!ها هو نجم السماء *** لا يُرِيح النفس ،لا ولا يدفع عناء
وكذا الأزهار لا تبدو جميلة *** السهول الْمُعْشِبَات تبدو ساخرات
وبهاء البدر يَرْثِي الذِّكريات *** آه لو يرجع بي الدهر إلى العهد القديم!!
كي يعود الحس بالحسن العميم
إنني كلما سَرَّحْتُ طرفي بين هاتيك الرَّوابي
لم تجد عيني جمالاً كان في الأرض زمانا
آه والأطيار تشدو صادحات فرحات!! *** بينما الحِمْلان في قفز ووَثْبْ
عندما تسمع دقات الطـبول *** وأنا وحدي قد طَوَتْنِي غمة[1]

وفـي الـنص المـذكور يظهـر بوضـوح إحسـاس الشـاعر الكاشـف عـن خلجـات وجدانـه؛ حيـث اسـتطرد فـي عـرض لقطـات مـن مفـردات الطبيعـة ،وتوسـل بهـا للكشف عما يمور بمشاعره الآسية الحزينة.

ومن خلال النماذج السابقة وتناولها يمكن القول بأن الشاعر الإنجليزي قد وقف أمام الطبيعة،وتأمل الكثير من معطياتها ، واهتز لها وجدانه ،وتأججت بمفرداتها أحاسيسـه ومشـاعره، وتوسـل بهـا لإبـداء وجهـة نظـره فـي سـلوكيات أفـراد المجتمع،وبخاصة الأفراد الذين بيدهم تصريف أمور الحياة ونُظُمها المتنوعة.

وقد ظهر بوضوح من خلال تناوله لبعض المعطيات الطبيعية القلق والاضطراب النفسـي والأسـي الـذي يملـك عليـه أقطـار نفسـه بسـبب الاسـتبداد والظلـم والتعسـف والجور ،وتكميم الأفواه السائد في ميدان المجتمع الإنجليزي آنذاك.

فالشاعر من خلال وجدانه الآسي وقلبه المكلوم ،يناجي الطبيعة، ويتحدث معها ويخاطبها ،ويتخذ منها سبيلا لبث آرائه وأفكاره، وتوصيل وجهات نظره للمتلقي. وذلك كله أكسب أشعاره في النماذج التي عرضناها عنصر السمو وحقق لها النبل والنقاء.

(١) المرجع السابق ٢٥٢

واعتقد أن مثل هذا الشعر يصلح في كل المجتمعات الإنسانية التي تتخذ من التعايش السلمي القائم على التعاون ومحاربة الاستبداد والظلم طريقا للبقاء والتقدم والرقى في كافة ميادين الحياة.

وقد استطاع الشاعر فوق ذلك أن يعبر بوضوح لا خفاء فيه عن هدفه ومبتغاه،ولم نلحظ لَبْس في عباراته أو غموض في دلالة فقراته ؛ وذلك يكشف عن التمكن من أدوات الصياغة الفنية التي تؤكد الشاعرية، وتترجم عن المقدرة الفائقة في التوظيف للكشف عن مكنون الأفكار بالأسلوب السهل الجذاب ،والجميل الرائع.

ومن أبدع ما تناوله الشاعر الإنجليزي – في نظرنا – اتّخاذه من الطبيعة ومظاهرها سبيلا لغرس الإيمان بِمُبْدِعها، وطريقا للتمجيد ولتعظيم الخالق –عز وجل– ،وذلك قِمَّة النبل ،وأعلى درجات السمو .

وليت النقد الأدبي الحديث يلتفت إلى مثل هذه النماذج التي ترقى بالمجتمع الإنساني في كل زمان ومكان.

الفصل الثاني

النص الشعري الوجداني من خلال النماذج البشرية

يتعامل الشاعر كغيره مع النماذج البشرية المختلفة ويتأثر هذا الشاعر أو ذاك بالنموذج البشري الذي يتعامل معه في الواقع المعاش،أو عن طريق التجربة الشعورية المسيطرة على وجدانه، فيرصد سلوكياته المتنوعة،وينقل للمتلقي إحساسه بها ، أو يترجم له عن تفاعله معها ، ويكشف عن مدى تجاوبه مع هذا السلوك أو نفوره منه .

ومن النماذج البشرية التي التزم المجتمع الإنساني بتقديرها الأم هذه الأم التي ظلت تحتل المكانة العالية في المجتمع الغربي وغيره،إلي أن هبت رياح التغير علي هذا المجتمع،وتوجه شيطان الإنس إلي هذه الشخصية،وأخذ في تَزْيِين الأمور التي تَهِزُّ من مكانتها،وتنال من قدرها،ونجح في استدراجها،حيث أخرجها من بيْتها بحجة العمل والمشاركة،والمساواة بينها وبين الرجل،ثم زين لها المكان البعيد عن البيت ،وجعلها فيه مخدومة،وقدم لها الألوان المتنوعة من الخدمات التي تدفع لتعلقها بهذا المكان،أو ذاك،وتنفرها من المنزل الذي كان يمثل مملكتها في الأمس القريب وبعد أن زين لها المكان،وسخر لها ما يحببها

، فيه ظهر أمامها الشيطان نفسه الذي نصب الشباك لها ، وتربص بها حتى سقطت في هذه الشباك،شباك الإثم والمتعة المحرمة خارج الإطار الشريف .
وبهذا تَحَقَقَ مأربه فتركت زوجها أو أهملته،وجعلت من الشيطان بديلاً له بل والمفضل لديها الذي يحل محله،وسرعان ما انشغلت عن طفلها الرضيع،وانهمكت في ملذاتها مع هذا الخليع أو ذاك،وظلت على هذا النحو حتى هجرت بيتها تماماً،وتخلت عن طفلها ، وعاشت لنفسها ، وتفرغت لملذاتها ومتعتها الذاتية في الأغلب والأعم.
وظفرت بها الذئاب من هنا و من هناك خارج مملكتها،وساعدها النظام الغربي الذي تولى الشيطان فيه التشريع في المجتمع الإنساني المفطور على الطهر والعفاف، وشَرَّع لها ما شرع من القوانين المشينة التي تبيح الولوج في الرذيلة وقدم لها كل ذالك تحت شعار الحرية والتقدم والتحضر والرقي وعكس لها الأمور فأشاد بالقبح وندد بالفضائل فانقلب الدار علي رأسها لتصبح في منزلها غريبة متلهفة علي الخروج منه،وأضحت عند طفلها امرأة أجنبية عنه،لا يهتز للطفل جنان عند رؤيتها، ولا تعبأ به،ولا يعبأ بها[1] .
وقد تجرع الكثير من الشعراء مرارة فقد الأم وهي على قيد الحياة،وذاق الحرمان من حنانها وهي في قمة الشباب،ورآها بعينَيْ رأسَه وهي غارقة في الملذات، ومنصهرة في بوتقة الشهوات،ومنصرفة عنه وعن إخوته،وهم في أمس الحاجة إليها [2].
ولقد تأثر الكثير من شعراء انجلترا بمسلك هؤلاء الأمهات وانصرف عن الشعر الذي يقدر الأمومة ويعرف بمكانتها ويرفع من قدرها،واحتلت المرأة الساقطة مكانها فأصبح متعاطفا معها مشيدا بمسلكها مشجعا للإباحية التي تغرق فيها ...

(١) خمسة مداخل إلى النقد الأدبي ـ ٣٢. وليرس سكوت ـ ترجمة عدنان غزوان دار الرشيد بغداد ١٩٨١.
(٢) الشعر والمجتمع ٦٥–هربرت ريد–ترجمة فارس متري ضاهر دار العلم للملايين بيروت ط١ ١٩٧٥ م.

وانهارت مكانة المرأة الأم الوقورة،الحانية العطوفة المضحية،المحتضنة لرضيعها وصغيرها،والمتلهفة على نجاح ابنها ، والحريصة على استقرار زوجها لانعدام دورها في إعداد الأبناء ، وتربية الأجيال.

لقد استطاع شيطان الإنس بخبث فائق و بمهارة و اقتدار في الغرب أن يبعد المرأة الأم عن دارها ويعطل دورها الطبيعي في الواقع المعاش بعد أن شغلها بنفسها وأصبحت من الساقطات أو الراقصات حول موائد القمار و شرب المسكرات(١)

وعلى الرغم من فقدان الإحساس بدور الأم عند الكثير من الشعراء للأسباب سالفة الذكر فقد التزمت بعض الأمهات برسالتها الطبيعية ، وقامت بدورها الفطري الذي فُطرت عليه تجاه الزوج والأبناء(٢) .

وهنا كان الشعور بالأمومة وحنانها وعطفها وحدبها؛وذلك أثر على وجدان الشاعر، وتأثر به إحساسه واهتزت له مشاعره،فأخذ في نظم الشعر الوجداني المعبر عن هزات وجدانه تجاه أمه المفطورة على التضحية والبذل والعطاء وأخذ في عرض مشاعره تجاهها على المتلقي ومن هؤلاء الشعراء الإنجليزي "وليم كوبر"(٣) الذي توسل بصورة أمه بعد وفاتها للكشف عن مشاعره تجاه والدته التي احتفت واعتنت بطفولته،واحتضنته وشغفت به،ولم تستجب للمغريات التي حيكت لها ولأمثالها من الأمهات يقول"كوبر"عن أمه من خلال تأمل صورتها بعد موتها ما يلي:(٤)

شفتاك
آه لو واتهما نبض الحياة!!
فهما بعض حديث بيننا
يا لصحراء الحياة

(١) البنيوية في الأدب ـ ٥٦ـ حنا عبود ـ منشورات اتحاد الكتاب العرب – ط أولى ١٩٨٤.
(٢) فلسفت الأدب في المجتمع ـ ٢٠١ـ كمال عيد الدار العربية للنشر ـ ليبيا ـ ط أولى ١٩٧٨.
(٣) هو شاعر من الشعراء الإنجليز المعروف لدى الأوساط الأدبية في انجلترا راجع قمم أدبيةمن الشرق والغرب ٦٣.
(٤) المرجع السابق ٦٥وما بعدها.

مذ خبا صوتك عني وتوارى
****
شفتاك لا تزالان هما
وابتسامتك لا زلت أراها عذبة
طالما قد داعبتني في صباي
إنها ترمقني ما خانها إلا الكلام
آه لو تؤتى كلام
لمضت تهمس بي حانية
قائلة لي :
لا تدع هذا الأسى يعصف بك
واطرح عنك دواعي الوجل
****

وفي المقطع السابق يلتفت الشاعر أول ما يلتفت إليه إلى"الشفتين"لأنهما من الوسائل الملموسة المحسوسة المعبرة عن الحنان،والعاطفة الجياشة،وكم رشف الشاعر من خلالهما ريق الحنان الذي هدأ من روعه،وجزعه بعد لثمهما،وكم استمتع بدفء الحياة بسبب الحديث الخارج من بينهما أنهما "شفتان" الأم العطوف،صاحبة القلب الحاني الرؤوف.

وبعد تأمله "للشفتين" تغمره دفقة التأوه المملوء،بالأسى المدفوع بالتمني المحال،فالشاعر يتمنى أن ينبعث منهما الحديث،وينطلق من بينهما التعبير الجميل الذي يهدئ النفوس،ويدفع للطمأنينة،ليت للشفتين يعود نبض الحياة،ليعود له الحنان يقف على الحقيقة المرة،حقيقة الصمت الذي يخيم على "الشفتين"،لقد خانهما الكلام وانقطع عنهما الحراك. فيا له من أسى ويا لها من حسرة...

وهنا تخرج الآهة الآسية من قلبه المكلوم؛لتتمنى عودة الكلام الخارج من بينهما؛حتى تهمس الأم بالحنان له،وتعزف على مسلكه لحن الآمان،وتخفف من لوعته،وحزنه،وآساه،وتفرج عنه همه وكربه،بالنصح،والإرشاد،والتوجيه الذي يرنوا إليه؛لتعود لنفسه الطمأنينة والهدوء،بعد القلق الذي ملك عليه نفسه بسبب غياب الأم عن ساحة حياته إلى صحراء،جرداء،لا طعم فيها ولا رواء. أنها حياة

الشاعر المعذب بفراق أمه،وسرعان ما يتخيل الشاعر أمه،وهي تهمس في أذنيه،وتلثم شفتيه،وتمسح على جبينه وتداعبه،وتدغدغ مشاعره،إنه يتخيل الحياة في الصورة،ولكن سرعان ما يقف على الحقيقة المرة،حقيقة الصمت الذي يخيم على "الشفتين"،لقد خانهما الكلام وانقطع عنهما الحراك. فيا له من أسى ويا لها من حسرة...

وهنا تخرج الآهة الآسية من قلبه المكلوم؛لتتمنى عودة الكلام الخارج من بينهما؛حتى تهمس الأم بالحنان له،وتعزف على مسلكه لحن الآمان،وتخفف من لوعته،وحزنه،وآساه،وتفرج عنه همه وكربه،بالنصح،والإرشاد،والتوجيه الذي يتم عن عاطفة الأمومة الجياشة وقلبها العطوف الحنون.

وبعد أن يترك"الشفتين"يلتفت إلى العينين في صورة أمه،ويترجم للمتلقي عن حسه، وما يهز وجدانه ويدفع بمشاعره،بقول الشاعر في هذا الشأن ما يلي:[1]

يا لعينيك تَمُدَّان شعاع الحب صفواً
تشرقان ببريق لي كما أشرقتا وقت الحياة
مقلتاك لا تِقِرَّان إلى أن تريانى
مستقرا بفراشي ناعماً بِالدِّفْء فيه
وهدايا الصبح من حلوى ومن عَبَقٍ
ضَمَّخَ خَدٌّ من يديك
فإذا وجهي بالإشراق نور
أترى أحْمَلُ يوماً لتلك اللحظات
أم مجرد أمنيات لن تعود.
آه! ثم آه! ثم آه!...

وفي المقطع السابق ينظر الشاعر،إلى العينين الماثلتين أمامه في صورة أمه فيمور وجدانه،وتهتز مشاعره،وتتأجج أحاسيسه،وينطلق لسانه بالشعر المعبر عن هذه النظرة،فالشاعر يرى في العينين إشراقاً وصفواً وهما تمدان الشاعر بالحب والحنان كما كانتا تمده من قبل وهما على قيد الحياة؛حيث لا يغمض جفن الأم إلا إذا استقر الشاعر في فراشه وراح في نوم عميق...وعندما يستيقظ

(١) المرجع السابق ٦٨

يجد يد الأم الحانية تمسح خديه،وتداعب شعره،وتقدم له الهدايا والحلوى التي تُدخِلُ البهجة على نفسه،والسرور على قلبه...،وبعد أن يقدم هذا المشهد المثير يعود ليتمنى أن ترجع هذه اللحظات، غير أنه سرعان ما يصطدم بواقع الآهات التي تمتلك عليه أقطار نفسه،وتقطع أدنى أمل في رجوع هذه اللحظات،وعلى هذا الأساس يلفه الأسى وتسيطر عليه حاله الذعر والخوف،ويمتلكه الجزع ويلفه الاضطراب النفسي المخيف الناتج عن خيبة أماله في عودة العهد الجميل،والنبع الصافي الناتج من نظرات الأم العطوفة الحنونة على وليدها.

ويتأمل الشاعر وجه أمه في الصورة الماثلة أمام عينيه ، ويتخيل صدى صوتها ونظرتها إليه،فيعتصره الألم،ويمتلكه الحزن،ولكن سرعان ما يطوف به خيالها،فيبعث فيه الطمأنينة،وبقلبه الهدوء،ولحياته السلام. فخيال أمه قدم له السلوى والعزاء.وصورتها بجواره تبث في نفسه الأمل،وتبعث في صدره الراحة. يقول الشاعر[1]

منذ أن فارقتني،ويحي وقد طال الفراق
وأنا على الدوم حزيناً
بينما وجهك يرنو لي طويلاً
وإذا أنت تَطُوفِينَ خيالاً بخيالي
تبعثين في ثناياه سلاما
وتبثين العزاء
حلم أحيا به لحظات خاطفات
هانئاً !إنك أنت
أنت أمي بجواري

ثم يخاطب الشاعر الصورة الماثلة أمامه بقوله :

إيه يا صورة الأم الوفية
قد أعدت الذكريات العاطرات
يا لهذا الفن كم خلد رغم الدهر ذكري
أنه يذكي بقلبي حق أمي في الوفاء

(١)المرجع السابق ٦٩

في رثاء ما به من صنعة
خالص من قلبي الخفاق باسْمك
****

ويلعب استرجاع الأحداث الخاص بموت والدته دوراً فعالاً،في صنع الصور الوجدانية الأخاذة التي تأسر القلوب،وتجذب المتلقي إليها.
ومن هذه الأحداث التي تعمق الأحزان في نفس الشاعر،وتهز وجدانه بعنف حدث خبر الوفاة،وإعلان موت أمه له.
حيث يقول في هذه اللقطة ما يلي[1] :

حين وفاني النَّعِي
أعلمت كيف سَالَ الدَّمْعُ من عيني لهيبا ؟
آه ويحي حين دوى ذلك الناقوس
ينعاك رتيباً
يوم وارك التراب
ورأيت النعش في خطوٍ وئيد،يتهادى
وهو يطويك بعيداً
آهة صعدتها من بعد آهة
صعدتها منكفئاً أبكي طويلاً
وأنا أرجع من نافذتي
حيث ألقيت عليك نظرة الموت الأخيرة
يا لها من نظرة ... يا لها من لحظة ...بعدها صرت يتيماً
إيه يا أمي هيهات هيهات
لآهات الوداع...
بعد أن غَيَّبَ القبر ... ذاك الجسد

(١)المرجع السابق صفحة٧١

وتوارى في التراب ... وتوارى للأبد
تحت أطباق الثرى .ليتني كنت يد بلا

والشاعر في اللقطة السابقة يسترجع حادث بث خبر الوفاة وموت أمه وينقل للمتلقي أثر ذلك على نفسه،وهزات وجدانه،ففي المقطع المذكور يتخيل الشاعر والدته بجواره،ويتحدث إليها ويخاطبها مخاطبة الماثل أمامه وينقل لها مشاعره عندما سمع خبر الموت من الناعي موت أمه التي كانت تلفه بالعطف،وتُفِيضُ عليه من نبع الحنان ،ويطرح الشاعر على أمه السؤال الذي يكشف له عن مدى علمها ببكائه ونحيبه، وأنينه ووجيبه ، عند مشاهد الموت المختلفة،ويستطرد الشاعر في عرض المشهد وموقفه الوجداني المترجم عنه،فعندما نعاها الناعي سال الدمع من عينيه لهيبا،وفاض الحزن من قلبه وجيبا. وعندما دق ناقوس الإعلان عن بدء مراسم تشييع الجنازة دق قلبه معه دقات الألم،وكاد أن ينفطر من شدة الأسى،وعندما حمل جسد الأم على الأكتاف كادت تخرج روحه من جسده من فرط الأسى،ولذع ألم الفراق.

ويترجم الشاعر عن حزنه وآساه،وهو يلقي النظرة الأخيرة على الجسد الذي سرعان ما غيب في التراب وطُويَ في الثرى،وغاب في غياهب القبر.

لقد رسم الشاعر لوحة شعرية وجدانية آسرة لمشهد من أكثر المشاهد المؤثرة على العواطف،وهزات القلوب،وكان الشاعر صادق الحس،منفعل المشاعر كأنه في حالة رصد لواقع مشاهدة في ذات اللحظة التي ينظم فيها الشعر الوجداني الآسر. لقد وفق الشاعر توفيقاً كبيراً في نقل مشاعره،وترجمة أحاسيسه بلقطات الوداع وما فيها من مناطر لمراحل موارات الجسد في الثرى وكل ذلك ،له بالغ الأثر على المتلقي الذي يشارك الشاعر مشاعره ويتعاطف معه في نقل هزات الأحاسيس المؤلمة الناتجة عن فاجعة الفقد ، ومسيرة المفقود إلى مثواه الأخير. حقا إنه لَشِعْر الابن البار بوالدته،المتعلق بأمومتها،والتَّوَّاقُ إلى عطفها ومودتها وحنانها وحدبها عليه.

لقد نقل الشاعر مشاعره الآسية كما ينبض بها قلبه،وترجم عن لواعجه وآساه كما يشعر بها حسه المكلوم من جراء الفقد.

والمقطع يسير في نغم جنائزي مناسب للحالة التي يمر بها الشاعر،مرحلة موارات الجسد ووضعه في القبر المظلم إلى الأبد.

ويعزف الشاعر على وتر الذكريات التي يمر على الذاكرة بعد أن غيبت أمه في القبر ولفها الثرى ليطبق عليها ويعلن التحفظ عليها إلى الأبد،وإبعادها عن ساحة الأحياء ومن بينهم هذا الابن الذي أمضه اليتم منذ اللحظة الأولى وكاد أن يقضي عليه.

يقول الشاعر:

كم اخْتَلَقَتْ خادمات البيت أسباباً تُبَرِرُ لِي غِيَابِكِ
وتقرب لي إيَابِك
إذ رأين الهم والأشجان تَنْتَاشُ فؤادي
وكذا قلبي
كم آمن قلبي بالوعود الخَاوِيات
إنني صدقت قول الخادمات..
وانتظرت عودة الأم الرؤوم
وانتظرت...وانتظرت
غير أني كل ما طال المدى
وبَدَا حِلْو الْمُنَى يتراءى
من بعيد كسراب
وبدأ القلب الجريح يتشكك في الخداع
آه كل يوم أمل يخدعني منذ صبايا
وَعْدٌ بَعْدَ غَدٍ يَبْدُو كِذَابا
هكذا قد مرت الأيام بي حزنا وصَابَا
هكذا حتى سكبت القلب أشجانا مُذَابَا
قدر صعب قد استسلمت له
غير أني رغم عمري رغم سني
لم أنساك يا أماه يوما
لم أنساك يا أماه دوما

وفي المقطع السابق ينقلنا الشاعر إلى صورة أخرى من صور النقل المباشر لتوالي الأحداث الناتجة عن الفقد ورحيل الأم والصورة المنقولة والطاهرة من

عرض المقطع السابق في النص المشار إليه صورة الخادمات في المنزل ودورهم في امتصاص الأسى والشجن أو تخفيف حدته على الأقل من فوق كاهل الصغير ،وهنا تبرز صورته وهُنَ يُمَنِّينَه بوعود العودة ...

عودة الأم المغيبة في ظلمات القبر...ولكن سرعان ما تتبدد هذه الوعود ويتلاشى تحققها،تحت وطأة طول الانتظار الذي لم يجني "اليتيم"منه سوى الأسى الذي يتملكه والحزن الذي يخيم عليه.والإحباط النفسي الشديد الذي يلفه ويكاد يودي به ...وينهي الشاعر مقطعه بإعلان الاستسلام للقضاء الأعلى الذي حكم على الأم بالموت وتَغْيِيبِهَا في ظلمات القبر.

وعلى الرغم من ذلك الاستسلام لحكم القدر إلا أنه لم ينسى والدته لحظة ولم تمر الأيام إلا وهي تظهر أمامه،وذكرها في عمق تفكيره وسويداء قلبه.

وقد استطاع الشاعر من خلال مقطعه السابق أن يتخذ من واقع الحياة المعاش سبيلا للبث الوجداني الناتج عن هذا الواقع ومعطياته وكان الشاعر موفقا في عرض مشاعره وأحاسيسه الناتجة عن وقع هذه الحدث وذاك العمل الذي تقوم بها خادمات المنزل،والدور الهادف إلى تخفيف حدة الألم عن كاهل الصبي اليتيم باختلاق الوعود له ،وتحديد المواعيد التي ستعود فيها الأم إلى منزل الصبي ليعود من جديد إلى حضنها الدافئ،وليستمتع بحدبها عليه،وحنانها الدفاق الذي يجعله مستمتعاً بالحياة.

وكان للإحباط دوره في إثارة الوجدان،ودفع الشاعر إلى الاستطراد في التعبير عن هزات الأحاسيس ودفقات المشاعر ،ويستمر الشاعر في التوسل بالاسترجاع تارة والواقع المعاش تارة أخرى لينقل للمتلقي الصورة الوجدانية تلو الأخرى نتيجة المقارنة بين ما كان عليه الأمس إبان حياة أمه،وما صار عليه الوضع الآن وبعد رحيل الأم بأعوام.

يقول الشاعر في المقطع التالي ما يلي:(١)

أين تلك الدار عشنا فيها بالأمس زماناً
أمسنا اليوم إمَحَى منها تماما
وعِيَالٌ غير أولادك داسوا أرضها

(١) المرجع السابق ٧٤

حيث مَهْدِي كان يوما فوقها
كل يوم كان يَحْدُونِي إلى مدرستي
رَجُل البستان عبر الشارع
وَأنا تَغْمُرِنِي البهجة فوق العربة
في الذهاب وفي الإياب
وعلى رأسي ارتفعت قُبَعَة ذات وبر ٠
بينما قد لَفَّنِي بالدفء ثَوبٌ قُرْمُزِي
لها من ذكريات مفرحات
ويا له من واقع مرٍ أليم
دارنا بالأمس كانت هانئة
وبك كانت جميلة رائعة
دارنا اليوم٠٠٠تضم غيرنا
وَتَوَارَيْنَا ولم يعزف أحد بأن الدار بالأمس قد كانت لنا
دارنا اليوم غدت تَرْوي بنا التاريخ ذكرى
ما درى عنا الورى إلا لماما
يا لذاك العهد من عهد سعيد إنه سرعان ما وَلَّى وَغَابَا
غير أني لم أزل أذكر عطفا
منك يا أماه لا تودي به
نوب الدهر كما أودت بشتى الذكريات العابرات٠٠٠٠
****

وفي المقطع السابق يجره الحنين إلى المَاضِي الجميل إلى الحديث عن الدار التي كان يقطن فيها إبان حياة والدته؛الحانية عليه،والعطوفة،بل المتدفقة بالحَدَبِ والحنان على طفولته الغَضَة٠

ويسأل الشاعر عن الدار،ويقصد الدار التي كان فيها برفقة أسرته،لأن الدار باقية وماثلة أمامه،ويعرف مكانها وكنه ما فيها فالدار ذاتها باقية وعامرة،وإنما الذي تغير فيها وأثر عليه،ونبه وجدانه؛هو خلوها من أمه،وأبيه وبالطبع بعده هو عنها٠

فالدار لم تصبح طللا بالياً ولم يخيم عليها العنكبوت،ولم يضرب على أبوابها ونوافذها بنسيجه المعلن عن خرابها،وخلوها من القاطنين بها،ولم ينعب فيها الغراب،أو يعمرها البوم وإنما تعج بالحياة والأحياء،لكن هؤلاء جميعا هم مكمن المثير الوجداني لدى الشاعر،حيث هؤلاء الأحياء غيره وغير أسرته،وهم غرباء داسوا أرض الدار بعد أن تغيب الأهل والخلان عنها،هذه الدار التي كانت مرتع طفولته ولهوه،وانطلاقه مع راعي البستان منها وإيابه إليها،أصبحت مرتعا للعيال الغرباء،ومقرا لآخرين لا يعرفون عنه شيئا.

ويعلن الشاعر عن تملك الذكريات لقلبه،وأَسْرِهَا لفؤاده ولبه،وتَرَبُع ذكرياته مع والدته في هذه الدار على عرش كافة هذه الذكريات الآسرة،وقد جنح الشاعر في تناوله لعنصر المقارنة بين ماضي الدار وحاضرها ليتوسل بذلك إلى نقل مشاعره الآسية الحزينة،الناتجة عن فراق أمه،وما ترتب على ذلك الفراق من الآثار النفسية الموجعة له هذا الفراق الذي شتت الشمل ، وضيع الاستقرار والأمن وحرم الشاعر من نبع الحنان،والعطف.

وأعتقد أن القصيدة وما تحمله من المعاني الوجدانية تكشف عن سمو الهدف،ونبل الغاية وتترجم عن مشاعر الشاعر تجاه الأم في المجتمع الإنجليزي الذي ندر فيه الاعتزاز بهذه المعني[1].

وفي نموذج آخر يتخذ الشاعر من سلوك الأم المشرف وتضحياتها وتحدياتها للصعاب وكافة المعوقات التي تحول بينها وبين تربية طفلها سبيلا للكشف عن كنه هذه الأم،ويشيد بمسلكها العظيم،ويرفع من قدر تضحياتها وتحملها لكافة ألوان المتاعب لكي تظفر بكسرة الخبز اللازمة لإطعام الطفل بجهدها وعملها الشريف يقول الشاعر في هذا المعنى ما يلي:[2]

يا ترى ما حَلَّ بالأم الرَّؤُوم ما دهاها
إنها تؤلم قلبي إنني اليوم أراها
تجأر بالشكوى عويلا،وتجيل الطرف في الدنيا طويلا

(١) الشعر والمجتمع ٢١٠–هربرت ريد– ترجمة فارس متري ضاهر–دار العلم ببيروت ، ويراجع أيضاً المنهجية في البحث الأدبي ـ١٤١ـ أحمد عُلَبِي ـ دار الفارابي . بيروت ط أولى ١٩٩٩.

(٢) القصة الشعرية في الغرب في العصر الحديث ـ ٣١٢ـ عزيزة مريدان ـ دمشق . ١٩٨٤

علها تحظى بشيء من طعام
عذبتني نَظَرَاتْ الأُم في دنيا الجياع
والذئاب إنتفضت ترقب صيدا

ويقول :

أظهروا للأم مالاً
ولذا الطفل الشهي من الطعام
واللذيذ من الشراب
عافت الأم الطعام
عافت الأم الشراب
ورأت في الموت خيراً
من حياة عرضها فيها يدنس أو يهان
نهرت– نفرت– وازدرت كل إغراء الذئاب
فجأة سمعت صوتاً ينادي
ساعديني يا بنية ساعديني
قَرِّبي يا بنت مِنِّى
احملي الأعباء عَنِّي
قرأت هذي العجوز في العيون قصة
الأم الحنون...عفة الأم... رغم اغراء الجبان والخئون ..
ثم قالت :
يا بنية أنت أم الطفل حقاً
وأنا من ذا اليوم أمك
هيا معي كيما أعيش
وكي تعيشي
ذهبت معها إلى دار الأمان
****
عجبا للأم رغم كل العقبات
رغم إغراء الذئاب

صانت الأم الحنون عرضها
وفرت قوت الصغير ... أطعمته
رغم كل العقبات
داعبته.. دَلَّلَتْه ..هَدْهَدَتْهُ
وعلى صدرها المثقل نام
رغم كل العقبات
داعبته.. دَلَّلَتْهُ ..هَدْهَدَتْهُ
وعلى صدرها المثقل نام
وبذا
عينها قَرَّت،وعلى الطفل اطْمَأَنَّتْ
****

وفي النموذج السابق يعرض الشاعر قصة الأم التي أجبرتها قسوة الحياة والظروف الصعبة على الخروج من بيتها الذي تقيم فيه لكي توفر لنفسها القوت الضروري للحياة ، ولطفلها الصغير ما يسد رمقه،أو يلبي حاجته،و يكشف الشاعر عن هزات وجدانه تجاه هذه المرأة،ومسلكها الحميد،وقد أظهر الشاعر ببراعة المعوقات والمغريات والتحديات التي وضعت أمامها،والتي استطاعت تجاوزها بنجاح بعد صبر شديد وابتلاء قاسٍ .

لقد استطاع الشاعر بمهارة فائقة تسليط الضوء على مُجرِّبات الأحداث الهامة، واستطاع عن طريق التكثيف والتركيز على بعض النقاط الهامة أن يؤثر على المتلقي ويدفعه إلى التعاطف مع المرأة،وعملها الشريف ويدفعه بشدة إلى النفور من الانتهازي القذر الذي ينسج الخيوط حولها ليوقعها في مستنقع الرذيلة،واستخدم الشاعر أسلوب التشويق،الأمر إلى أَضْفَى إلى النص المزيد من التعلق به،والشاعر في نصه يمجد الأمومة،ويتعاطف مع المحتاج البائس الفقير،ويشيد بمسلك الأم ونفورها من الحياة السهلة التي لا تنال من شرفها وإقبالها على العمل الشاق الذي يحافظ على عرضها ويصون جسدها ويلبي حاجاتها،وَيُؤمِّن طفلها وكل ذلك حقق لها عنصر السمو والنبل.

هذا وعندما تلتقط عين الشاعر مظهر الفتاة،ومسلكها الطيب المتمثل في رعاية والدها المسن،وتفضيلها للتعلق بيده عن التعلق بيد فارس أحلامها أو عاشق فتنتها،تهتز مشاعره وتتملكه عاطفة الإعجاب بهذا المسلك الحسن،ويتمنى لو

تجود الحياة بمثل هذه الفتاة،وهنا يصدح بشعره معبرٍ عن إعجابه بهذا المنظر ويتجلى ذلك فيما يلي:(١)

سار شيخ طيب في أول الركب إلى الدنيا الجديدة
دمعة في عينه رَقَّتْ حناناً
وَرِثَّاء لِدموع النازحين
صحبته ابنته الحسناء تبكي بدموع صامتات
آه من هذِي الدموع ثم آه ٠
هي يمناه التي تسنده
إنْ عَزَّ في وقت المشيب السَنَد
نَسِيت فتنتها والجمال الوَارِف
نفضت عنها ذراع العاشق
ومضت تحنو وتهفو لذراع الوالد
وهنا جالت بفكرى الأمنيات
وتمنى القلب أن تأتي الحياة
بفتاة مثل هاتيك الفتاة
****

والنموذج البشري هنا هو الفتاة الحسناء،ومسلكها السامي وهو انشغالها برعاية والدها المسن،وحدبها عليه،وَبِرُّها له،وتظهر مشاعر الشاعر من خلال إعجابه بهذا المسلك الطيب الذي جعله ليتمنى أن يسود في المجتمع وتجود بمثله الحياة٠٠

واعتقد أن نبل الوجدان جلي في النص المذكور،وسمو الغاية ظاهر في عبارته والمعاني التي تتضمنها٠

والنص وما يحتوي عليه من أفكار يشهد للشاعر بنقاء الأحاسيس،وصفاء السريرة،ويعطي المتلقي صورة طيبة عن مسلك داعم للقيم والمبادئ الرفيعة التي ترفع المجتمع وتنهض به،والشاعر في النص السابق يترجم للمتلقي عن مشاعره المتعاطفة بل والمعجبة بمسلك الفتاة الحسناء تجاه والدها٠

(١) المرجع السابق ٢٢٩

وفي النص التالي يكشف الشاعر عن نفوره من مسلك الفتاة الريفية المتهور الخالي من المسؤلية والبعيد عن الصواب والقيم الإنسانية والأهداف النبيلة وذلك فيما يلي:(١)

تلك الفتاة التي قد كنت أعرفها
في الريف يوماً ما أَحَيْلاهَا
شَطَّ الخيال بها كي تُرْضي رَغْبتها
فتخلت عن ثياب الريف
ثم ولت نحو أضواء المدينة
****
فقدت أصحابها...عفتها
وعلى أعتاب باغ سالب الأعراض ارتمت
ثم أحنت رأسها بين يديها، أسف في مقلتيها
تلعن اليوم الذي ذهبت فيه إليه ،تحت إغراء المدينة
بعد أن دنسها...عافها...ثم أضحت
عاهرة بين يديه...متعة للساقطين
لم تطق ذل المدينة رجعت للريف خاسئة حزينة
يطويها قهر الألم...ويلفها ذل الضياع.
****

والشاعر في النموذج السابق يُنَفِّر من مسلك الفتاة المتهورة التي خسرت بتهورها أعز ما تملك،ومن الوضوح بمكان أن الصورة التي رسمها الشاعر لهذه الفتاة كفيلة بردع كل فتاة ريفية لها رغبة في الاحتذاء بها،وبمسلكها الذي لم يَعُد عليها إلا بالخراب والدمار والمهانة والازدراء والاحتقار.
والصورة المرسومة ناتجة عن تملك عاطفة النفور من المسلك المشين الذي صدر من الفتاة في النفس الشاعرة.

(١) الشعر والتجربة٣١٥- أرشيبالد مكليش- ترجمة سلمى خضراء الجيوشي- دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر طبعة أولى بيروت ١٩٦٣م

والنفور من السلوك غير السوي يدفع بالنص إلى داخل دائرة السمو ،ويحقق للتجربة الشعرية عنصر النبل،ويكشف للمتلقي عن الطريق السليم الذي ينبغي التوجه إليه،وذلك يرفع من القيم،ويدفع إلى نشر الفضائل ، ومحاربة الرذائل٠ ويتعلق وجدان الشاعر بمعلمه الأول في قريته ، ويملي عليه إحساسه ، وتعلقه بالسمات النبيلة التي يلحقها بهذا المعلم ويتجلى ذلك بوضوح في قوله التالي[1]:

ها هنا في ظل سور "مِلْتو"[2]
قام في القرية منشئ الأجيال وجدانا وفكرا
ورسول العلم ما بين رباها
قام في مدرسة من داره صاخبة
صَارِم الْجَبهة صَلْب عُوده
****
إنَّ لي "كَمْ" من ذكريات معه طيبات
حينما يبدو بوجه عابس
كان والله أبا براً رحيما
لم يكن يَقْسُو إلا لِحُب العلم أو للخير فينا
كلنا قد كان يدري أي بحر علمه الطَّامي الغزير
فهو في الخط قدير
وهو في علم الحساب جِهْبَذ "فذٌ" خطير
تأته الأرقام طوعى باحثات عن يديه
وله باع طويل في الجوار
تخرج الألفاظ من وحى التدبر والشعور
محكمات حاسمات للجليل من الأمور
تجذب الألفاظ سمعي
****
بالبيان المستنير
يَأسُر الألباب فكر مقنع جم غفير

(١) مطالعات في الأدب الغربي ٤٨– خليل السكاكيني –ط١القدس١٩٢٥م
(٢)المرجع السابق ٥٠ وما بعدها

وهو في زرع الأراضي عالم كفء خبير
إنني في عجب من أمره
كيف يحوي رأسه هذا الصغير
كل هذا الفكر والعلم الغزير
****

ومن خلال النموذج السابق تظهر عاطفة الشاعر الجياشة المترجمة عن إعجابه بمعلم القرية وتتجلى بوضوح مشاعره السامية الكاشفة عن تقديره البالغ له،وتملي هذه العاطفة على الشاعر السمات النبيلة التي تليق بالمعلم في القرية، فالمعلم هو منشئ الأجيال،وهو العالم "الفذ" والوالد العطوف ، والمُتَلَقي الواعي الذي يمتلك فن إدارة الجوار،بأسلوب رصين وتعبير آسر جميل جاذب للأذان،ومؤثر على القلوب ومقنع للأذهان وممتع للمتلقي ٠

ومن خلال النص يظهر المعنى السامي النبيل،الذي يستطرد على مشاعر الشاعر ويندفع من خلال معطيات وجدانه،ومكنون ذكريات الطيبة أستاذه عبر أيام الدراسة الأولية في قريته،والنص يترجم عن سمة الوفاء التي يتحلى بها الشاعر،ويكشف عن المشاعر الصادقة تجاه معلمه الأول٠

ومن النماذج البشرية المؤثرة على معطيات مشاعر الشاعر"صاحب المال" المتعالي على الآخرين بكثرة أمواله ويظهر ذلك بجلاء٠

في النص التالي[1]:

في غرور يتمطى صاحب الأموال والملك العريض
وحده حراً طليقا،يتباهى،في الصباح والمساء
بين أرض وسماء
وسهول ونجاد٠٠٠ ليس في الدنيا سواه
ليته أطعم الجَوْعَى أو رَوَّى،الظمّاء
****

خيروني يا رعاة الحق فرسان الزمان
أبمال عز قوم٠٠٠؟

(١) المرجع السابق ١٠٩

أم بفقر ذل قوم؟
****
إنما الحق أقول من صميم القلب،من عمق الشعور
ربما يسكن يؤس بين قصر وحرير
أو يعيش السعد في الكوخ الصغير
إنما المال سَراب وأمان زائفات
لم يقم يوما هناء،أو يدم يوما شقاء.
****

وفي النص السابق يُنَفِّر الشاعر من مسلك صاحب المال وغروره ، وتعاليه على الفقراء وغطرسته على المساكين وضَنِّهِ على المحتاجين،وينتقد مسلكه المشين،ويتمنى أنه لو أطعم الجوعى أو أمد الظمآن بالماء.

ويقف الشاعر حائراً أمام المال وأثره على مكانة القوم في المجتمع ويكشف عن حيرته بطرح السؤال على رعاة الحق ورواد الفكر،على أمل الوصول إلى إجابة تريح البال أو يطمئن لها الفؤاد..ولم يحظ من هذا أو ذاك على جواب.

وهنا يعلن على الملأ وبأعلى صوته مسترفدا لمشاعره وحسه بأن المال لم يحقق لصاحبه السعادة المطلقة والهناءة المرتقبة،بل ربما يكون الأرق والقلق والتعاسة في داخل القصر المنيف الذي يقيم فيه الثرى أو الأمير،وقد تكون السعادة والهناءة وتحل الطمأنينة في داخل الكوخ الصغير الذي بقطنه الرجل الفقير أو المسكين المُدْقَع.

والنص يترجم عن رؤية الشاعر الذاتية النابعة من حسه،ونبض وجدانه حتى لو خالفت الواقع المعاش وحقائقه الملموسة.

والنص يُنَفِّر من الغرور،والبخل ويندد بمسلك المتعالي المتكبر صاحب المال،الذي يتبختر ويتباهى على الفقراء ويتلذذ بعوذ المحتاج،وحرمانه من أبسط سبل الحياة.

ويتعاطف الشاعر من خلال النص مع الفقراء،ويحض الغني على العطف عليهم،والشفقة بهم،وإمدادهم بالمال الذي يكفل لهم لقمة الخبز وجرعه الماء.

وكل ذلك حقق للنص الغاية السامية،والهدف الرفيع والغرض النبيل،والنص لا يحتكم إلى المنطق المعهود والواقع المعاش في نظرته للمال،وأثره على القوم

وحياتهم، وتقدير المجتمع لهم ، وإنما يحتكم إلى مشاعره المتعاطفة مع الفقير والمنددة بسلوك صاحب المال الوفير ومسلكه المشين تجاه المحتاجين والفقراء المساكين.

ومن النماذج البشرية التي تأثر بها "جوزيف وارثون" الشاعر الإنجليزي المعروف–المهندس "الحر" الذي لا يخضع لثوابت الهندسة في عمله الميداني، بل يبدع ما يشاء من الأشكال والرسومات الهندسية التي يستسيغها وتنسجم مع معطيات الواقع وميدان التنفيذ .

إذ لا مانع عند هذا المهندس واتجاهاته الهندسية من اختراع الأشكال والألوان التي لا وجود لها عند علماء الهندسة.

وقد اتخذ الشاعر من المهندس" كِنْت "مثالا ونموذجاً للتوجه الهندسي المرغوب فيه لديه والمرضي عنه؛لأن المهندس المذكور في نظر الشاعر يخترع أشكالا هندسية، ويبدع رسومات بما يتوافق مع رؤيته الذاتية ومنطلقاته الإبداعية التي يرضى عنها تفكيره ولا يَعْنِيه موافقة أو مخالفة مُعطيات الثوابت الهندسية.

يقول الشاعر عن المهندس" كِنْت "ومنهجه ما يلي[1]:

"كِنْتٌ"مهندس فنان منهجه يروقني ويعجبني تماماً
هو لا يرضخ للقمع ،ولا يرضى للفن لجاماً
لا يطيق القيد حتى وهو قيد من ذهب
أو قوانين فصاح كقوانين الأدب
كلها زيف لديه و ضلال
كل قيد عافه حتى الذي منه استدار
في جمال مثل بدر
أو بشكل هندسي فوق عرش قد تربع
ومضى "كِنْت" طليقا يتثنى كيف شاء
رافضاً كل انتظام أو نظام مستبد في إباء

وفي النموذج السابق تهتز مشاعر "وارثون" الشاعر تجاه مَنْحى المهندس "كِنْت " الذي يتوق إلى الحرية وينادي بها،ويعمل على نشرها في ربوع تخصصه أو

(١) روابط الفكر بين العرب والفرنجة ١٠١ط٠٢

السلوك العام،لقد كره المهندس" كِنْت" كافة القيود،ونددد بها حتى لو كانت مصنوعة من الذهب الخالص،فالقيود في نظره،زيف وبهتان وفيها "الكبح" الذي يُثقل العقل،ويُثبِّط قمَّة التفكير ،والإبداع لديه.

لقد أعجب الشاعر"وارثون" بالمهندس" كنت "لأنه عاف كل القيود،ونفر من كل الثوابت الهندسية لأن الالتزام بها يؤدي في نظره إلى خمول العقل الذي يقتصر على تطبيقها ويحول بينه وبين الإبداع والتجديد والإضافة لهذه الثوابت...وذلك في نظره لا يتناسب مع التطور وحاجة المجتمع الإنساني إلي التجديد فالمهندس الحق هو الذي يضيف إلي الأشكال الهندسية المعروفة أشكالا أخرى من عنده ولا يقف عندها،ولا يكتفي بها؛حتى لا تتوقف عجلة التقدم والرقي والارتقاء الذي يعتمد علي الاختراع والتجديد والإبداع في نظره.

ومن عرض النموذج والتعليق السابق يظهر بجلاء شغف الشاعر "جوزيف وارثون" بالحرية،وتعلقه بها.

وقد اتخذ من سلوك المهندس "كنت" سبيلاً لتوضيح رأيه عن طريق تأييده "لكنت" في منحاه الداعي إلي الحرية،والمنفر من القيد وذلك يعد من السمو بمكان،فالحرية مطلب من المطالب الإنسانية يتوق إليها كل إنسان وبخاصة الشاعر والمفكر والأديب،ولكن إفراط "كِنْت" في طلب الحرية ومناداته للتفلت من كل القيود المنظمة لخط سير العالم،أوقعه في دائرة "الفوضى". وإذا كانت الحرية القائمة على النظام هي التي تحقق أهداف الإنسان وترقى به إلى مدارج التقدم والبناء فإن الفوضى تهدم البناء وتحطمه،وتضيع هيبة القيم التي ترقى بالإنسانية إلى أعالي القمم.

وقد فطن النقد الأدبي الغربي وبخاصة الإنجليزي لهذه الدعوى ووضع حدا "للحريةً" حتى لا تتجاوزه إلى الفوضى التي تؤدي بكل تقدم تحقق للإنسانية في عصر الثورة الصناعية التي نقلت العالم من البدائية إلى ذروة التقدم العلمي و"التكنولوجي"،ويضرب النقد الغربي مثلا للحرية المفيدة بالطائرة التي تطير في الجو بحرية لكنها مقيدة بالمطارات وتعليمات الهبوط والصعود،فإذا طارت هذه الطائرة بحرية مطلقة فسرعان ما ينفذ الوقود وتتحطم وتؤدي بمن فيها.

وكذلك سائر المخترعات والسلوكيات فالحرية إذن لا تحمل أدنى قيمة إذا خرجت على النظم التي تكفل لها الاستمرار ،والإفادة في العالم المعاش.

فالحرية البَنَّاءة هي التي تكفل للمفكر والأديب الانطلاق وفي ذات الوقت تلزمه بالسير على النظام وتقيده بالقوانين والقواعد والثوابت،والأنظمة العامة التي تتيح له فرصة الاستفادة بالمخترعات المستحدثة(١) ..

وعلى أساس ما تقدم يمكن القول بأن الإعجاب بالمهندس "كنت"الشغوف بالحرية والنافر من القيد ، أمر محبب إلى النفس ونافع للمجتمع في حدود الالتزام بكل الثوابت والقواعد المنظمة لكافة سبل الحياة وفي ذات الوقت كان الأحرى بالشاعر أن ينتقد سلوك المهندس"كنت" المتجاوز لحدود الحرية المنظمة لأن ذلك أدخله في دائرة الفوضى التي تحطم كل ما يدفع للرقي والارتقاء بالإنسانية، وعلى أساس المنهج الذي أدى إلى انبهار "وارثون" بالمهندس "كنت" والمتمثل في إيمان "كنت" بالحرية المطلقة كان إعجابه بالشاعر "وليم شكسبير"،ونفوره من الشاعر "اديبسون"،وذلك لأن الشاعر "اديبسون" يخضع شعره للنظام الصارم وقوانين الأدب المنظمة لكافة أجناسه،ويتوسل بالتنقيح والتجويد الفني في نظم قصائده حتى يخرجها إلى المتلقي في ثوبها القشيب،وبناءها الفني الخاضع لقوانين وقواعد الأدب المنظمة له والمصطلح عليها لدى النقاد،وأما "شكسبير" في نظره فهو الشاعر المتحرر من القيود التي ينادي بها النقاد حيث يضرب بشعره في كافة الإتجهات،وبنظمه في سائر الموضوعات دون التقيد بقواعد النظم أو نظريات النقاد في الصياغة،ويتجلى ذلك الرأي في النص التالي :

أين ما نمقه في الشعر نظماً "اديبسون"
صنعة قد أتقنت فناً ولكن
ما بها روح ولا قلب خفوق
أين هذا الزيف شعراً من أغاني "شكسبير"
شقشقات ضاربات،وحنين منطلق إثر حنين
دون قيد أو نظام
كان شعر "شكسبير"،..

(١) المرجع السابق١٢٩ويراجع، لسانيات النص كمدخل إلى انسجام الخطاب ـ١١٠ـ نشر الدار البيضاء بيروت٠

واعتقد أن التعاطف الوجداني مع "وليم شكسبير"،والتنديد المبرر بشكل غير منطقي بشعر "اديبسون" يبعد الحكم عن الموضوعية فالشعر يحكم عليه كما هو معروف لدى النقاد في الغرب من خلال الشكل والمضمون [1] فإذا لم يخضع الشكل للقواعد المنظمة للنص الشعري حكم عليه بقدر ما فيه من التجاوز ،والذي يتأمل في شعر "شكسبير"الموضوعي والمسرحي منه على وجه الخصوص يراه ملتزماً بثوابت الفن المسرحي حيث نجد في مسرحياته وحدة الموضوع،وتسلسل الأحداث،وتظهر من خلالها الغاية،وتظهر فيها الشخصيات التي تدور على ألسنتها الأحداث،وتتضح للمسرحية بداية وعقدة ونهاية وكل ذلك لم يتحقق في هذا العمل إلا إذا وضع الأديب "شكسبير"أمامه القواعد الأساسية المنظمة للعمل المسرحي،فأين خروجه إذاً عن النظام العام والثوابت الأساسية؟ ومع ذلك فلا مانع أن يتميز على غيره بصفة أو ميزة لكنه في نفس الوقت هو ملتزم بثوابت وقواعد ثابتة لا يمكن الفكاك منها كما أوضحنا.

فالتميز إذاً لا يكون بهدم الثوابت والثورة على القواعد،وإنما يكون بالاستفادة منها والإضافة لها.

ومن النماذج البشرية التي اهتز لها وجدان بعض الشعراء في انجلترا،الشخصية الدينية ، ومن النماذج الشعرية التي يتجلى فيها هذا المنحى هذا النموذج الذي يقول ما يلي: [2]

قام في القرية واعظ
مسكنه بيت صغير
يتعاطى كل عام مبلغا عدا ونقدا يحسده الناس عليه
مبلغ يكفل له العيش الرغيد في المدينة
لكنه لم يلتفت يوما إليها
بل نأى عنها في زهد عجيب
هام بالأخرى وبالدنيا استهان
ياله من وَاعِظٍ فذ عظيم
****

(١) المرجع السابق١٣٥
(٢) القيم الروحية في الشعر ـ ٢٦٥ ـ د/ثريا ملحس .

وفي النص السابق يظهر إعجاب الشاعر برجل الدين ومسلكه وقناعته بالحياة المتواضعة في القرية،ورفضه للحياة في المدينة على الرغم من امتلاكه لأدوات الحياة فيها رغبة منه في تقديم الخدمات الاجتماعية للبسطاء بغير تظاهر أو رياء ويظهر الشاعر طريقة تعامله مع الآخرين،ويكشف عن بعض سماته التي يتميز بها في هذا التعامل يقول الشاعر(١):

يَرْفع الغير،وهو باق حيث كان
ويُعين الغير وهو أوْلَى أن يعان
هام بالأخرى وبالدنيا استهان
يَمْسح الدمع إذا الدمع هَمَا
ويمد اليد بالخير العميم
يا له من واعظ فذ عظيم

وفي النموذج السابق يلحق الشاعر السمات النبيلة بالواعظ "رجل الدين "والواعظ يعاون الآخرين ،ويأخذ بأيديهم ،ويرفع من شأنهم ويدفع الجميع إلى تحقيق الغايات المرجوة على الرغم من حاجته الملحة لمن يساعده،ويعاونه لقد استهان بالدنيا ،ولم تغره بزخرفها الفاني،وتعلق بالآخرة ونعيمها الدائم الذي لا يعتريه فناء،ولا يشوبه فخر أو رياء وينقل الشاعر للمتلقي صورة الوعظ وهو في الصلاة ويكشف له عن إعجابه به فيقول(٢):

يا لعينين تطوفان بمحراب الصلاة
ولا إشْرَاق تلألأ فيهما نَبْع الصفاء
ولصوت قد دَوَى بالحق جَلْجَالا قويا
يجعل الساحر منه صاغرا عبدا خشيا

والنموذج السابق يصور الواعظ تصويرا لائقا به ،ويعطي للمتلقي شكلا مثاليا رائعا له،فالواعظ من المصلين الخاشعين في صلاتهم ،الذين يتلألأ منهم النور وينبع من وجوههم،وهو من الأتقياء الأقوياء في الحق وإحقاقه،وتمكين صاحبه من الحصول عليه.

(١) ،(٢) المرجع السابق ١٨٠ وما بعدها

ويستطرد الشاعر في الحديث عن الواعظ ودوره في القرية فيقول[1] :

قد رعى القرية طراً بدعاء ورجاء
وبقلب ودموع٠٠٠وبعين وبصيرة
مثل طير راح يغري فرخه في الجو
يوما أن يطير
وبشتى الحيل
فهو طورا في الفضا يُطلقه
وهو طورا من قريب في الفضا يَرْقبُه
وهو طورا بالجناحين معا طوقه
هكذا الواعظ في قريته
كل باب طرقا
لم يُضِع وقتا ولا بالنفس ضَنَّا
ليقود الركب للشَّط الأمين
****

ومن خلال عاطفة الإعجاب وهزات الوجدان يستطرد الشاعر في الحديث عما يقوم به الواعظ تجاه من يْحْتَضر وآثر ذلك على النفس المحتضرة وشهود الاحتضار يقول:الشاعر في هذا الشأن:[2]

فإذا ما لحظت الموت دَنَتْ
وطغى بالقلب ما أخفى فدَوَّى مُعْلِنا
ما طواه طيلة العمر ودار مُبْطِنا
طافحاً يَخْفِق بالحزن وبالإثم مَعَا
وقف الواعظ سلوى وسلام
يمسح اللوعة واليأس ويلقي في القلوب الأملا
فإذا الراحة والصبر الجميل
"تصْحُبُنا" حتى آخر الأنفاس فينا
****

(١) المرجع السابق ١٨٢
(٢) المرجع السابق ١٨٩

وينقل الشاعر وتَبْدُو مشاعره المندهشة إثرَ تأثر الواعظ الشديد بما يطرأ على أبناء القرية،وأهلها من الخير العميم المفرح،أو الشر الذميم المحزن؛حيث لا يعرف هذا الواعظ سبيلاً للفرحة ولم يتذوق طعم السعادة والهناء إذا أَلَمَّ بالقرية حدث"ما" ينغص على قاطنيها الحياة،أو يبعد الهدوء عنهم،أو يسبب لهم الانزعاج والضنى أو يقلق مضجعهم،وأما إذا ابتسمت الأماني للقرية وقاطنيها،وتحقق للناس فيها بعض متطلبات الحياة،وعم بينهم السرور،هش الواعظ،وامتطى صهوة السرور،وجاس خلال ديارها فرحاً مبتسماً معلناً بهذه الابتسامة وذاك السلوك عن مشاعره السعيدة، وفرحته العظيمة بالخير الذي أسعد القلوب،وطمأن النفوس وحقق لسكان القرية بعض الأماني.

يقول الشاعر في هذا المعنى[1]:

يا له...فهو الذي لم يعرف في الدنيا ابتساماً
غير يوم،داعب القرية فيها بعض ابْتِسَام الأمَانِي
وهو ما قَطَّب عن صَافِ الجَّبين
غَيرَ يَوْم قطب الْحَظ به للقرية
فهي حُبٌّ في حَشاه
وهي قَلْب بين جَنْبَيه خَفُوق.
****

وقد تأثر الشاعر الإنجليزي "سبندر"عندما عاش وتعايش مَعَ وَاقِعة الغُبْن التي مارستها السلطة مع أحد القضاة في لندن؛نتيجة تمسكه بالحق،وتطبيقه للقانون ونصوصه المعتمدة في ديوان إدارة المحاكم على متهم "ما" ترغب أدوات الحكم في تبرئة ساحته،بل إدانة خصومه على الرغم من وضوح أدلة الاتهام،ونصاعة البراهين التي تدين المتهم المراد،وتدفع به إلى حيز الإعدام ودائرة الشنق،وقد أشادت بعض المصادر الأدبية المهتمة بالبواعث الوجدانية في الشعر،ونظمه بالصور الوجدانية الصادقة والمؤثرة على المتلقي [2]،ومن هذه الصور،الصورة

(١) المرجع السابق ١٨٩

(٢)الصورة الشعرية – د/ سبيل– ويراجع ص٣٠٩ وما بعدها – الأسس النفسية في الإبداع الفني دار المعارف ط ٤–١٩٨١م د/ عز الدين إسماعيل، ويراجع أيضاً الشعر

الوجدانية الشعرية التي ترجم بها "سبندر" عن مشاعره تجاه واقعة الجور والظلم الذي لحق "بالقاضي الحر" في لندن.

هذه الواقعة التي أثارت الشاعر،وحركت مكامن فكره الكاشف عن تعاطفه مع القاضي العادل الحر الذي أراد أن يطبق القانون طبقاً لمعطيات العدالة،ولإيمانه بسيادة الحق،وضرورة إحقاقه مهما كان الثمن.

وذلك كله جعله يواجه السلطة الحاكمة،ويتصدى لها بكل ما يملك.

ونظراً لأن الشعر لدى الكثير من النقاد في البدء والنهاية مرتبط بالحياة بأكملها وبخاصة الصراع الدائر بين الحق والباطل والخير والشر وتأمُّل معطيات الحياة وما فيها والتعايش بوجدانه معها[1] أصر الشاعر "سبندر" على تعاطفه مع القاضي الذي يواجه تعسف السلطة الحاكمة آن ذاك .

والقصة كما يرصدها التاريخ المعتمد على نقل الواقع هي أن هناك في أحد المحاكم "بلندن كان" قاضياً عادلا،معتزاً بالقانون،مستميتاً في تطبيق نصوصه،محقاً للحق،ومتصدياً للباطل بكل قوته وفي ذات يوم عرضت عليه في دائرته بالمحكمة قضية كان المجرم فيها متهماً بقتل إنسان،وتـُثبتُ البراهين،والأدلة القاطعة بارتكاب المتهم لجريمة القتل مع سبق الإصرار والترصد،وعندما هم القاضي باتخاذ الإجراءات التي تدينه،وُجِّهَت له رسالة من قبل الحكومة بضرورة تبرئه المتهم،لأنه من رجال السلطة،ولأنه قام بمهام تخص الأمن بل وطالبت بشنق أتباع المجني عليه.

وهنا صدع القاضي بالحق،ولم يرضخ لمطالب السلطة،وسلطان جبروتها،وحكم على المتهم بأقصى العقوبة المقررة،وهنا قامت قيامة السلطة الحاكمة،وسارعت في القبض على القاضي واستعجلت محاكمته،بتهمة التجاوز في تطبيق الأحكام،وقلبت الأمور رأساً على عقب،وكان ذلك هو الدافع الوجداني لنظم الصورة الشعرية الكاشفة عن تعاطف الشاعر "سبندر" مع القاضي المكلوم ومساندته،والإشادة بموقفه يقول "سبندر" في هذا الشأن ما يلي [2] :

والتأمل ص١٨ وما بعدها – روستر بفور هاملتون– ترجمة/محمد مصطفى بدوي،المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر

(١) اللغة والأسلوب ٢٩١ د/مصطفى ناصف – النادي الأدبي الثقافي– ١٩٨٩ جدة

(٢) المرجع السابق ص ١٢٥

وقف القاضي وقفةً يغبط عليها ...
وقفة تحسب له، وقفةً نَرُنو إليها
وقف القاضي وقفة أملاها حقٌ
حيث لا يعنيه غير ميزان العدالة
طبق القاضي على الشرير نصاً
واضحاً لا لبس فيه
لا ولا أدنى غموض يَعْتريه...
غير أن السلطة لا تريد للجاني إدانة
لا ولا ترضي له أدنى إهانة
أنه الخادم البر الأمين
خولته السلطة "عرفاً"وأمدته بسلطان مكين
طعن المسؤول في الحكم وقال :
أيها القاضي تمهل في القرار
واقرأ التقرير
حتى لو أطال
إن ذا الجاني مريضٌ أيها القاضي ولا يفهم خطاب
هو مجنون أيها القاضي فلا يعرف سؤلاً
لا ولا ينطق جواباً
والحكم أيها القاضي عليه من المحال
****
نظر القاضي في التقرير وأطْرَقَ ثم قال:
التقرير يفيد بأن الجاني مجنون
والقانون لا يَعْتد بجرم المجنون
****
القاضي يرفع رأسه ثم يقول:
التقرير يدين الشرير
فهو الناطق بالبهتان وبالتزوير
وهنا يُقرِّر ضم التقرير

لساحة ظلم الطغيان
ويحقق في واقعة التزوير....الهادفة لتبرئة الشرير
****

وهنا تحتد السلطة...ولهجتها تشتد
وتطالب كل الأوساط بعزل القاضي...تنحيته
ثم القبض عليه وعلى الفور
تسارع أدوات القمع،وعناصر غرس الإرهاب
بعزل القاضي العادل والقبض عليه
ليحاكم بقانون لُفّق بالأمس
****

تهدأ نفس القاضي
وتقول حقاً تم العزل بنص قانون
لكن لم أتعلمه من قبل
****

ثم يصدح الشاعر "سبندر"معلناً تأيده للقاضي ومترجماً عن مساندته له ويظهر ذلك بوضوح في قوله التالي :

أيها القاضي النبيل راعني ما أنت فيه
ساءني من يَزْدَريك..هَزْنِي ما تزْدَريه
موقف منك جليل،كل حُر يَشْتَهيه
أيها القاضي النجيب
أنت لحن الشرفاء أنت إكسير السماء
أنت لحني رغم عزلك رغم قيدك
أنت رغم العزل رغم القيد فوق العظماء
****

ومن خلال عرض ما سبق يتجلى بوضوح تعاطف الشاعر "سبندر" مع القاضي المكلوم المعزول ظلما والمكتوي بنار استبداد السلطة التي تتدخل في توجيه خط سير العدالة.

لقد فصل القاضي فصلاً تعسفيا،وتم تفصيل القانون الذي يُمَكِّنُ من القبض عليه ومحاكمته محاكمة صورية مدفوعة بأغراض دنيئة معروفة لدى العام والخاص وعلى الرغم من ذلك يظل القاضي – في نظر الشاعر الموجه للجميع– على رأس قائمة العظماء.

وعندما سادت التفرقة العنصرية في المجتمعات الغربية اسْتعبد الرجل الأبيض في الغرب الرجل الأسود،ونظر له نظرة دُونية،واحتقره لسواد لونه،ولم يلتفت إلى الإنسانية التي يشترك معه فيها.

تحرك وجدان بعض الشعراء في "انجلترا " للكشف عن المشاعر تجاه هذا المسلك المُشِين،ولِبَيان الأساس الذي يجب أن تكون عليه المفاضلة بين الناس. ولتوضيح وجهة النظر السديدة تجاه هذه الظاهرة يقول الشاعر "وليم بليك "في هذا الشأن ما يلي[1]:

من بين غابات الجنوب ..
جاء بلون أسود
وكذا أنت جئت باللون الجميل الأبيض
فلا بجهد منك حُزتَ على البياض
ولا أنت للوجه الجميل بمُشْتَرِي
ولا لِفقَرٍ فيه عُوقب بالسواد
حتى تُحَقِّر لونه أو تزْدري
****
لا ولم يُكتب لك على الدنيا الدوام
وهو يُمْحَي في الثرى ويُغَيَّب
لا ولن تَضْمن حَيَاةً للمساء
لا ولن تضمن حياتك لِلْغَد
****
كلنا على الأرض سواء
فلا هو عبد حقير مُزْدَرَى...

(١) مطالعات في الأدب الغربي ص١٦٦ – خليل السكاكيني – ط١ القدس ١٩٢١م

لا ولا أنت خُلِقْتَ السيدِ
****
ساءني يا أبيض أن تَزْدَريه
لأن إهابٌ له أسودٌ
فاللون يا أبيض الوجه لا يرفع في الدنيا الوضيع
ولا يخفض فيها الرفيع في الحاضر اليوم لا ولا في الغد
****
مَنْ يَخْدِم الإنسان أو يَرْقَى به
يُقَدَّم! وللتّاج المُوَقَّر يَرْتَدِي
****

وفي النموذج السابق يترجم الشاعر عن هزات مشاعره تجاه النموذج البشري الأبيض،ومسلكه المشين تجاه النموذج البشري الأسود،هذا المسلك الذي ينظر للأسود بوجه عام على أنه عبد حقير لا هم له في الحياة ولا عبرة لوجوده غير خدمة الأبيض، فالأبيض هو السيد المحترم الذي يَمْتلك الأسود،ويَتَمَلك مصيره ويتحكم في تصرفاته بغير وجه حق،وبدون مبرر غير اللون الذي لم يكتسبه بمال،أو بجهد،أو بفطنة.

ويندد الشاعر بهذا المسلك ويبرر وجهة نظره،فالأبيض قَدِمَ من نفس المكان الذي قَدِمَ منه الأسود،ولم يكن لأحدهما الخيار في اختيار لون البشرة،والأبيض لم يشتري اللون الأبيض لبشرته بماله الوفير،ولم يصنع لنفسه الوجه الجميل،ولم يعاقب الأسود ببشرته السوداء لأنه فقير مدقع،لا يملك المال الذي يوفر لوجهه البياض المطلوب. هذا ولم يكتب للأبيض الدوام على ظهر البسيطة،ولم يكن الفناء قاصرا على الأسود فهما في الحياة والموت سواء،ويعلن الشاعر عن مشاعره الآسية تجاه هذا المسلك المُشِين الصادر من الأبيض للأسود،والمُهين له على أساس سواد الإهَاب الذي لا دَخْل له فيه؛لأن الأساس في الرفعة والمجد يكمن في ما يقدمه الإنسان لرقي المجتمع،فالسواد في نظر الشاعر الذي يكسو بشرة الأسود لا يخفض رفيعاً ولا ينال من قدْرٍ أو مكانة،والبياض الذي يتباهى به الأبيض لا يرفع وضيعاً،ولا يضيف مجداً للأبيض.

ومن خلال عرض كل ما سبق يظهر بجلاء وجدان الشاعر الإنجليزي النبيل من خلال النماذج البشرية ومعطيات التعامل معها ٠

الفصل الثالث

الظواهر الفنية من خلال مصطلحات النقد

يخضع الإبداع الأدبي في الغرب لمعطيات النقد المصطلح عليها لدى النقاد في إطار اتجاه محدد ،أو مبادئ واضحة ،مميزة لهذا الاتجاه أو ذاك، ويحكم له أو عليه من خلال ما يتوفر فيه من هذه المعطيات، بحزم وصرامة ، دون مجاملة ومن غير تحامل.

لقد توجه الناقد الأدبي الغربي إلى النِّتَاج وسلط عليه بصيرته النقدية طبقا لِمُكَوِّناتها، دون مراعاة العلاقة الشخصية الحميمة أو الجافية القائمة بين الناقد والأديب،ومن غير التأثر بالمنصب الإداري أو المكانة الاجتماعية التي يشغلها [1] هذا الأديب أو ذاك[2].

فهاهو الناقد الأديب "ورد ذرث" يُقدِم على نقد صديقه العزيز على نفسه، "كلوردج " ولا يعبأ بالعلاقة الحميمة القائمة بينهما ،وعلى أساس هذا المنحى كانت رؤى "كلوردج" النقدية في إبداع صديقه "ورد ذرث"[3] ولم يحدث أدنى فتور في العلاقة بينهما، وغير هذا أو ذاك الكثير من النقاد في انجلترا [4] ،ويعد هذا المسلك من الوسائل الهامة التي تساعد على تطبيق المنحى الموضوعي العلمي في النقد الأدبي الدافع إلى الإبداع المصيب ، الهادف إلى خدمة الأديب والأدب معا ، هذا الأدب الذي يمثل ضمير الشعب[5] النابض الذي ينبه عقول الإنسانية ،ويحفز أبنائها،وَيَدفعهم للإصلاح ،وينفرهم من الخلل والخطأ، ويحذرهم من الزلل أو الوقوع فيه.

---

(١)يراجع – النقد الأدبي في الغرب ص٧٥وما بعدها ،د/الصافي العبيدان دار الفنون ببغداد ط ١٩٨٥م.

(٢)شعراء عظام من الغرب ص٢٨– سبندر – ترجمة سهير نجم–

(٣)الإبداع في الشعر ص١٢٥ تأليف – سبندر – ترجمة شاكر عبد الحميد – بيروت– ١٩٧٩م.

(٤)الشعر – تأليف لويز يوجان– ص١٤٩ ترجمة سلمى الخضراء الجيوشي،دار الثقافة بيروت ١٩٦٣م.

(٥)حاضر النقد الأدبي ص٢٠٨ د/محمود الربيعي دار غريب بالقاهرة.

ويلتزم الناقد الأدبي الغربي بتطبيق معطيات ومصطلحات النقد الأدبي بكل حزم كما ذكرنا من قبل ؛لأن النقد الأدبي عنده هو ضمير الأدب[1] ،والبلسم الذي يُصلح من شأن الأديب، ويدفع به إلى بوتقة الإبداع النافع المفيد ،والفني الممتع المقنع السديد،الذي يرقى بالإنسان ،ويسمو بالمجتمع ،ويدفعه للتقدم، وينهض بِمُعْطَيات إنسانيته التي تميزه عن سائر المخلوقات،وهناك العديد من المصطلحات النقدية التي اهتم بها الناقد الإنجليزي، وطبقها بدقة وموضوعية على نتاج الأدباء، وَحَلَلَ من خلالها النصوص الأدبية ،وحكم لها أو عليها.

وسنعرض في هذا الفصل بعض مُعْطَيات النقد الإنجليزي ، وسنقوم بتطبيقها على الشعر الوجداني النبيل ؛لنصل من خلال ذلك إلى أبرز الخصائص أو الظواهر الفنية السائدة في هذا الشعر وذلك على النحو التالي:

(أ)"مصطلح التناص":

اهتم النقد الأدبي الإنجليزي بهذا المصطلح،ووضع له دوائر فنية ودرجات كاشفة عن كنهه،وحقيقته.

ويُقصَد بِالتناص تعلق النص اللاحق بالنص السابق في دائرة أو أكثر من دوائر التناص المصطلح عليها لدى الكثير من النقاد الإنجليز وغيرهم.

وكان "جنيت جرار" من المتحمسين لتطبيق هذه الظاهرة والبحث عن دوائرها في إبداع الأدباء ،وكان لكتابه الشهير"من التناص إلى الأطراس" بالغ الأهمية في تأصيل هذا المصطلح وقد اهتمت بهذه النظرية أيضا "جوليا كريستيفا "[2] والأديب الناقد "تودوروف "و "ميخائيل تيجانين " [3] وقد حدد الناقد الغربي الحد الأعلى للتناص حيث يرى أن هناك درجة عليا من درجات التناص،وتتحقق هذه الدرجة عندما يتعلق اللاحق بنص سابق تعلقا شديدا، ويترسم خطاه،ويقتفي أثره،في الصياغة الفنية،والمضمون ويتخذ من منحاه سبيلا لإبداعه،وطريقا لإخراج هذا النتاج،دون ترك أدنى فرصة للانطلاق الحر ،والانفلات من قيد

(١)المرجع السابق ٢٠٩

(٢)البنيوية التكوينية والنقد الأدبي – ٢٥٨د/فخري البشري – مؤسسة الأبحاث العربية ببيروت – ١٩٨٥م

(٣)أنثرو بلوجيا الحداثة تأليف : دافيد لوبرثون ص١٨٨ – ترجمة محمد عزمي ساصيل – المؤسسة الجامعية

النص السابق وتوجهه...[1] وذلك الترسم جعل النقد الغربي مصنفا للنص الأدبي السابق على أنه النص الأصلي وتأسيسا على هذه الأصالة كان تفضيله للنص السابق على النص اللاحق في الصياغة الفنية والمضمون؛حتى لو كان النص اللاحق بالغ الفنية، وصائب الهدف[2].

ويطري الناقد الأدبي منحى الأديب الشاعر صاحب النص اللاحق إذا أضاف جديدا مؤثرا على نمو التجربة،ودافعا إلى عنصر الابتكار فيها،هذا وقد يستفيد الشاعر من نص له سابق لإنتاج نص آخر،وعندئذ يصنف عند النقاد تحت دائرة التناص الذاتي وللنقاد في هذا المنحى توجهات وتصنيفات لامجال لها في هذا البحث بشكل مفصل[3].

ويطري الناقد الأدبي منحى الأديب الشاعر صاحب النص اللاحق إذا أضاف جديدا مؤثرا على نمو التجربة،ودافعا إلى عنصر الابتكار فيها،هذا وقد يستفيد الشاعر من نص له سابق لإنتاج نص آخر،وعندئذ يصنف عند النقاد تحت دائرة التناص الذاتي وللنقاد في هذا المنحى توجهات وتصنيفات لامجال لها في هذا البحث بشكل مفصل.

وفي ضوء معطيات "التناص تبين استخدام الشاعر الإنجليزي لنظرية التناص النقدية، وتوسله بها في إبداع بعض قصائده الوجدانية.

ومن النماذج التي يتجلى فيها التناص هذا النموذج الذي يقول فيه الشاعر ما يلي :[4]

كان يوماً إذ بَدَا الجَدْول فيه والخَمِيلَة
والأَرَاضِي المُعْشِبَات كلها تَبْدُو جميلة
وأَدِيمُ الأَرْض يَعْلوهُ البَهَاء
كل شئ لفهُ ضُوء السَّماء بَدَى في العين جميلاً

(١)المرجع السابق ١٠٠
(٢)المرجع السابق١٢٠
(٣)للمزيد من المعلومات في هذا الشأن يراجع كتاب الشاعر الإنجليزي في العصر الحديث،وعالمه الشعري تأليف ج.س فريزر ألن ترجمة حمد سلامة ص٣٢ وما بعدها – توزيع ونشر وزارة الثقافة والإعلام –جمهورية العراق ط١ –١٩٨٦م
(٤)الشعر الغربي –جورج طنسن٦٧–منشورات وزارة الإعلام ط ١ بدون تاريخ

جِدَّة الأحلام ولَذاذات الكرى
بَلْسَم للقلب في ظلِّ الخمِيلة
كان يَوْماً وتولى .. بعد وأد .. الأمنيات
فإذا سرحت طرفي اليوم في تلك المجالي .
في صباح أو مساء
لم أجد فيها جمالا
ًلا ولا حتى الطيوفا
****

آه!! ويحي ها هو نجم السماء
لا يريح النفس لا يدفع عناء
وكذا الأزهار لا تبدو جميلة
والسهول المعشبات تبدو ساخرات
وبهاء البدر يرثي الذكريات
****

آه!! لو يرجع بي الدهر إلى العهد القديم
كي يعود الحِسُّ بِالْحُسْنِ العميم
****

والشاعر في النموذج السابق يترجم عن إحساسه ببعض معطيات الطبيعة عندما كانت نفسه مبتهجة،وقلبه مطمئن،وحياته سعيدة٠و بنقل للمتلقي مشاعره الآسية، وهزات وجدانه الحزين بعد ما تحطمت أحلامه،وتبددت آماله عن طريق بعض معطيات الطبيعة أيضا٠فالشاعر ينظر بعين مملؤة بالجمال وسعيدة بمفردات الطبيعة عندما كانت حياته مستقرة في أيامه الخالية،وهاهو يعلن اليوم فقدان الإحساس بجمال هذه المعطيات،ومن الوضوح بمكان أن مفردات الطبيعة لم تتغير ولم تتحول٠٠٠، ولم يتبدل سمتها، فالورود هي ذات الورود ، والتلال هي ذات التلال ، والأشجار والبحار هي نفس الأشجار والبحار،التي كانت بالأمس القريب والتي يَحِسُ بِحُسنها،ويستمتع بجمالها،ويرتاح في حضنها،وإنما الذي تغير هو إحساس الشاعر الناتج عن الابتلاء الذي أصابه في حياته،هذا

الابتلاء الذي جعله يفقد الإحساس بالجمال الذي كان يحس به في الأمس القريب.

ويقول "كلوردج "الشاعر الإنجليزي في النموذج السابق على النموذج المذكور بأكثر من أربع سنوات ما يلي [1]:

كان يوما إذ بدت فيه السَّمَا والأرض حسناء جميلة.
والسهول المشرقات اكتست
حسنا روياً
****

والخميلات ظلالاً وارفات بين غابات فساح
كل شيء لاح في عيني جميلا وجليلاً
كان يوما وتولى لم يعد في الأرض غير الشجن
والأسى المطبق بل وهَمُ المِحَن
****

آه!! لو يرجع بي الدهر إلى العهد القديم
كي تهيم النفس بالكون العظيم
****

ومن خلال النظر والموازنة بين النموذج السابق والنموذج اللاحق ، يتبين أن النص اللاحق تناول فكرة الماضي الذي كان ينعم فيه الشاعر بالسعادة والهناء،والراحة النفسية،والصفاء الوجداني الذي جعله يستمتع بمعطيات الطبيعة ومفرداتها التي تتمثل في الخمائل والسهول،والأراضي المعشبات،والزهور وضوء الشمس المشع بالدفء والنور،والجداول التي تفيض بالماء العذب النمير،وفي كل ما تقع عينه عليه من مفردات الكون ومعطياته الممتعة للنظر والمريحة للنفس الشاعرة،وفي النص أيضا تتجلى الفكرة الرئيسة الثانية التي تتمثل في الحاضر القاتم،بل الكالح السواد المؤلم للنفس نتيجة خيبة الآمال،وَوَأد الأماني،وضياع الأحلام،التي كان يرنوا إليها،ويتطلع لِتَحَقِقِهَا.

(١) القصيدة الشعرية الإنجليزية ١٢٠ تأليف سبندر ترجمة د/أحمد هريدي توزيع وزارة الثقافة والإعلام بغداد ١٩٨٦م

هذه الخيبة التي جعلته فاقداً للإحساس بجمال مفردات الطبيعة،والمتمثلة في كل ما سبق عرضه في الماضي الجميل الذي كان ينعم فيه بالراحة النفسية الناجمة عن تحقق أهدافه.

لقد كشف الشاعر عن ضياع إحساسه بجمال الزهور،وحسن الخمائل والسهول المعشبات،وأصبح البدر لديه راثياً للذكريات،ثم يَتأوَّه الشاعر بعد أن يتملكه الألم ويتمنى المستحيل الذي يتمثل في عودة الزمن الجميل الذي كان يستمتع فيه بحياة الرغد،والصفاء النفسي الذي يعيد له عنصر الحس الذي فقده،وعنصر الاستمتاع بالجمال الذي حرمه الألم منه،وباعد بينه وبين التمتع به.

وإذا تركنا النص اللاحق للنص السابق عليه لوجدنا فيه الفكرة الأساسية الأولى التي يتحدث فيها عن الماضي الجميل الذي كان يملك فيه الشعور البهيج عليه أقطار نفسه ويجعله يحس بجمال مفردات الطبيعة،ويتفاعل معها.

هذه المعطيات التي تتمثل في الخمائل والسهول،وكافة ما في الكون من الموجودات التي تسر لها النفس،ويرتاح لرؤيتها الفؤاد،وتؤثّر بجمالها الألباب.

وتظهر في النص السابق أيضا الفكرة "الثانية" التي تكشف عن فقدان الشاعر لعنصر الإحساس بجمال مفردات الطبيعة التي كان يشعر ببهائها في الماضي الذي كان يخيم فيه السرور عليه،ويعلوه الابتهاج الناتج عن تحقق بعض الأماني التي كان يتطلع إلى تحققها،ويختم الشاعر السابق نصه بالتأوه والأنين،والأمنيات التي تأمل في عودة الماضي الجميل الذي يعيد للنفس الشاعرة،الطمأنينة والهدوء الذي يجعله يحس بروعة الطبيعة،وجمال مفرداتها الخلابة،التي تسحر الألباب وتأسر العقول وتسبي الفؤاد.

والنص اللاحق تتحقق فيه دائرة التناص العليا التي اصطلح عليها النقد الأدبي الإنجليزي؛وذلك لأن النص اللاحق يتعلق بالنص السابق تعلقاً شديداً ويترسم خطاه، ويقتفي أثره في الفكرة الأولى والثانية وخاتمة النص،ويتخذ من منحاه سبيلاً وطريقاً في تناول المفردات المتمثلة في معطيات الطبيعة وغيرها،ولم يترك الشاعر اللاحق لنفسه أدنى فرصة للانطلاق الحر في التعبير عن التجربة الشعورية أو الانفلات من قيد النص السابق،وعلى هذا الأساس يُصَنَّفُ النص اللاحق في مرتبة ثانية،ويحتفظ النص السابق بدرجة التَّمَيُّز،والأصالة

التي تكفل له "المرتبة الأولى" طبقاً لمعايير "التناص" التي اصطلح عليها النقاد كما ذكرنا(١).

يقول الشاعر عن الموت ما يلي(٢):

ما المَوْت عندي سوى غَفْوة
ومنظر الموتى يضاهي النيام
فهذا مُسَجًّى بغير حراك
وهذا ينام بغير إرادة
تنادى عليهم بصوت خفيض
فلا تحظى منهم بأدنى إجابة
فلما تخشى وِرْد الممات؟
وتسعي لِطيْف الكرى في سعادة
****

وليس الردى غير إغفاءة
تريح من ذا الصراع الذميم
وبالموت قطعاً سَتُمْحَى حياة
حياة،عناء،وحقد دفين
ونوم الفتى بعده يَقظة
يُسَرِّع فيها مرور السنين
فذا الموت أفضل من ذي الحياة
وأحْرى به أن نَهِمْ وَيَهِيم
****

ومن خلال تأمل النموذج الأول "السابق" والنموذج الثاني "اللاحق" نلحظ توسل الشاعر بفنية "التناص" حيث اشترك النص اللاحق مع النص السابق في السطر الشعري الأول في الألفاظ والصياغة والفكرة.

فالموت في النص السابق ما هو إلا بمثابة الإغفاءة،وفي النص اللاحق الرَّدَى (أي الموت) بمثابة الإغفاء أيضاً.

(١)المرجع السابق ص٣٣
(٢)المرجع السابق ص١٠٥

وعلى الرغم من ذلك فإننا لا نستطيع القول بأن "التناص"قد بلغ درجة عالية أو متوسطة في أجزاء النص وأفكاره؛لأن النص اللاحق قد اتخذ خطا فكرياً بعيداً إلى حَدٍ "ما" عن الخط الفكري الذي اتخذه النص السابق.

فالنص السابق استطرد في الحديث عن النيام وَوَصْفِهم،والموتى وسَمْتِهم،وَوَازَنَ بينهما؛لينتهي إلى التساؤل الإنكاري الذي ينكر على من يخاف الموت،أو يهاب قُدُومه،في الوقت الذي يرحب فيه بطيف النوم ويسعد بوجوده.

أما النص اللاحق فقد ركز على عرض ما يميز الموت عن الحياة وما يدفع لتفضيله عنها.

وانتهى بالتصريح بوجهة نظره التي تُفَضِّل الموت وتدعوا للهُيَام به.

ومن القصائد الشعرية التي يتجلى فيها التوسل بالتناص في الصياغة والأفكار قصيدة الشاعر الإنجليزي "توماس جراي"التي يقول فيها ما يلي :

هذا فلاح وهَذِى أرضه
صانها منذ عهد قديم ..
شَقها بالفأس لانَتْ له
ثم أعطته من الخير العميم
****
كوخه جَنْته .. هو فيه سعيدٌ
ليس يَدْري الناس عنه خَبَراً
من قريب أو بعيد
****
فأسَهُ عُدَّته ... يَدهَا حِلْيته

صَوْتها غِنْوته..
وهي لحن الكفاح القديم الجديد
لِفأسِهِ "ما يسْتَرُوا" وعَازف فذ فريد

دَعْك من عَزْف الملاهي
للغواني،واستمع لحن الخلود
لحن فلاح فقير لحنه عَذب نمير
****

مَرَ بالقرية عَاتٍ
مالِك المال الوفير
هَدَمَ الكُوخ بأمْر
****

من حقودٍ وحقير
صارت الأرض يَبَاباً
بعدما جف الغدير
****

وفي النموذج السابق،يظهر "الفلاح" النموذج البشري الكادح السعيد بكفاحه،العاشق لأرضه، المحب الولهان لفأسه،هذه الفأس التي يعزف لها أعذب الألحان..

والفلاح المذكور مبتهجٌ في كوخه الصغير،ومسرورٌ بحياته وعمله في أرضه الصغيرة المصانة منذ عهد قديم.. ويظهر في الجانب الآخر النموذج البشري العاتي الظالم،المالك للمال الوفير الذي يحقد على الفلاح ولا يتصور كفاحه،وقد اندفع بحقد وغل،وبِشَرٍ مستقر في الفؤاد إلى الكوخ الذي يلوذ به الفلاح ، وقام بهدمه ثم طرد الفلاح من أرضه مصدر رزقه واستولى عليها،ليَصْبَح الفلاح طريداً شريداً بغير مأوى وبدون مصدر رزق.

وهنا تصَحَرت الأرض،وجَفَّ غديرها الذي كان النبع الصافي للفلاح وأرضه في الأمس القريب.

وفي القصيدة يتجلى بوضوح تعاطف الشاعر مع الفلاح وكوخه وفأسه،ومنهجه في الحياة،ويظهر بجلاء نفوره من المستبد العاتي،والظالم المتعسف الذي يحقد على الفلاح ويقوم بطرده من أرضه.

ويأتي الشاعر الإنجليزي "أوليفر جولد سمث" بعد أن نَظَمَ الشاعر "توماس جراي" نصه السابق ليَنْظِم قصيدة شعرية متأثراً بها،ويتجلى ذلك في قوله [1]:

كدَحَ الفلاح في أرض لهُ
صانها منذ الزمان البعيد
فأسُه آلتهُ ... لُقمة غايته
قلبه قلبا نقياً،جسمه رغم الضنى
جسماً قويا..
****
طفله رغم الكفاف طفلاً رَضِيَا
الغنى والمجد والجاه العريض
كَامِنٌ في فأسه في كوخه في
لقمة لطفله
****
يا لهذا الزمن القلّبِ
اشترى الغاصِبُ أرضَ القرية
طاردا فلاحها عَبْرَ الخلاء
بعد هدم الكوخ مأواه الوحيد
وطوى بالظلم أرض الفقراء
وعَلا قصراً على أنقاض كوخ

ومن خلال النظر في النموذج "السابق" والنموذج "اللاحق" يمكن القول بأن بعض دوائر التناص متوفرة في النص حيث استخدم النص اللاحق ،النماذج البشرية المستخدمة في النص السابق والمتمثلة في الفلاح والطاغية المستبد وتحدث النص اللاحق عن مُصَادَرَة الأرض وطَرْد الفلاح وقد اتخذ الشاعر اللاحق من نفس الأماكن مجالاً للحديث وعرض الأفكار...هذا من ناحية،ومن ناحية أخرى فإن هناك بعض الأفكار التي استقل بها اللاحق عن السابق وعلى هذا الأساس يمكن القول بأن دوائر "التناص" غير مكتملة.

(ب) الخيال وفضاء النص

(١)المرجع السابق ص١٩٦

– حظي الخيال في الغرب باهتمام العديد من النقاد،وتجلى من خلال هذا الاهتمام التوجه الذي يرضى عنه في هذا الشأن.

لقد أطرَى هذا النقد الخيال المبتكر الغريب،وبخاصة النابع من صميم التجربة الشعرية المعاشة ، البعيد عن تقليد الآخرين ورأى فيه روعةً وجمالاً ونددد بالخيال الذي يَرْكن للإتباع ، وتقليد الآخرين ويكتفي بنقل أخيلتهم في نصه الشعري دون إضافة أو تجديد يَنُمُّ عن خصوصية النظرة التخيلية[1] ...

ويشترط النقد الأدبي في الخيال ترسيخه للحقيقة والفكرة المرادة[2]،فالخيال وسيلة للغرس الفكري،والإمتاع الجمالي،وسبيلا لتوضيح المعقول في الأذهان،وإذا خرج الخيال عن هذه المهمة خرج من الدائرة البناءة إلى دائرة الشطط والوَهَم الذي لا يُجْدِي للتجربة،ولا يُكسبها الرِّوَاء والشاعرية[3].

هذا وقد تردد على السنة بعض النقاد في الغرب عبارة "فضائيات النص"،الأمر الذي دفع المهتمين بالنقد الأدبي الغربي إلى تحديد كُنْهِهَا؛للكشف عن إمكانية تطبيقها في الشعر.

"وفضاء النص" عند النقاد يقصد به المعاني المسكوت عنها في النص الأدبي والتي تَفْهَم من المعروض المُعَبَّر عنه في الصياغة المقروءة من المتلقي أو المسموعة[4].

ومن النماذج التي تتوسل بالخيال المبتكر،الداعم للحقائق الفكرية المرادة في النص هذا النموذج الذي يقول ما يلي[5] :

بدنيا البشر غَشُومٌ ظلوم
يُصْدِرُ أمراً غريباً رهيباً!!
****

(١)الخيال عند "لورانس داريل" تأليف "جوستين" ص١٠٦– ترجمة سلمى الخضراء الجيوشي – دار الطليعة بيروت –١٩٦١م،ويراجع الدراسات الأدبية والخيال ص٢١٢تأليف "رئيف خوري" – منشورات دار المكشوف بيروت١٩٤٥م،دور الخيال في تصوير الزمن ص٩٧ تأليف "سمير الحاج شاهين"–المؤسسة العربية للطباعة والنشر ببيروت ١٩٨٠م،مدارس علم النفس١٩١دار العلم للملايين ط٤ ١٩٧٩م د/فاخر كامل.

(٢)المرجع السابق ١١٥

(٣)"غروستاف جرو نيام" والخيال ص٤٥ ترجمة إحسان عباس وآخرين مكتبة الحياة ١٩٥٩م.

(٤)الخيال عند "لورانس" ص١٢٢

(٥)المرجع السابق ١١٦

يُصْدِرُ أمراً بجمع الجماجم
جَمَاجِمِ مَنْ فكَّروا في الخلاص
لِيمحوا منها آثارَ العقول
****
ويصنع منها كؤوس الخمور
لتصبح رمزا لِعَقل مُغَيَّب
ورَدْعاً لمن يُريد الخلاص.
****

وفي النموذج السابق يعبر الشاعر عن تجربة شعورية ضاربة بجذورها في الإحساس المؤلم تجاه التصدي الجائر للمفكر البَنَّاء،والمُخْلِص في إبداء الرأي الذي يرقى بالمجتمع،ويندد بكل ما ينال منه.

لقد أملى عليه النفور من مسلك العَاتِي المُسْتبد تجاه المفكر،وقمعه له بغير رحمة هذه الصورة الشعرية الخيالية الموغلة في تعميق الإحساس بقسوة المستبد،وبيان مقدار كراهية العاتي للمفكرالحر.

والخيال كما يبدو من تأمل النص يرسم صورة للطاغية وهو يأمر أعوانه بجمع الجماجم التي كانت في يوم "ما" وعاءً لِعَقلٍ المفكر المخلص الذي يعارض في الغالب توجه الظلم والاستبداد.

هذه الجماجم التي كانت تحوي بُؤْرَة التفكير،وعَناصِره المُناهِضة للتسلط، والمطالبة بالخلاص من الظالم وظُلمه،ولم يَكْتَفِ بذلك بل يطالب أذنابه بصناعة أقداح الخمور منها؛لِتُصَبْ فيها كافة المُسْكِرات التي تتكفل بإزالة أدنى آثار للمخ الذي كانت الجماجم وعاءً له في يوم "ما" على حد تصور الطاغية الموغل في الهَوَس ،والمتمادي في التوجس والخوف من مجرد وجود الجماجم التي كانت تحوي العقول المفكرة التي أباد أصحابها بظلمه وجبروته،وتسلطه وجوره عليهم.

وأعتقد أن هذه الصورة المُوغِلة في الخيال كاشفة عن حقيقة شعورية،حيث أنها تبين للمتلقي مدى كُرْه المستبد للفكر البنَّاء،وتُظهر له مقدار ما يَنْطوي عليه صَدْره من كُرْه وحِقد للمُفكر المُخلص المُعارض للاستبداد.

وفي النص توجد المعاني الكثيرة المسكوت عنها،وذلك ما أطلقَ عليه النقد الغربي مصطلح "فضاء النص"[1] كما ذكرنا من قبل،ومن هذه الأفكار مثلا ما قام به الغاشم العاتي من الشرور في المجتمع،وما ارتكبه من الآثام التي جعلت هؤلاء الأحرار يثورون عليه، ويحرضون الشعب على الخلاص منه.

ومن المعاني التي لم يتناولها الشاعر بالصياغة اللفظية وسكتت عنها العبارة الشعرية،مرحلة القبض على هؤلاء المفكرين وتعذيبهم،والتنكيل بهم وبِذويهم،وإصرارهم على مواقفهم،ومساندة البعض لهم،أو تخليهم عنهم . هذا ولم تذكر الصياغة في النص القضايا الملفقة لهم،التي بموجبها تم القبض عليهم،والحكم عليهم بالإعدام،ثم مواراتهم في مقابر جماعية أو فردية يعرفها هو وأعوانه دون ذويهم ومعارفهم وأصدقائهم.

ولم يَكتُب النص أيضاً ما يكشف عَن مَدَى صَدَى إعدام هؤلاء المفكرين في المجتمع.... إلى آخر الأفكار المسكوت عن صياغتها في النص المشار إليه .

هذا ولم يكن كل الخيال في الشعر الوجداني الإنجليزي مبتكراً أو على هذا النحو من الغرابة والتكثيف،وإنما هناك من الأشعار الوجدانية التي اعتمد فيها الشاعر على الآخرين وأخذ عنهم الصورة تلو الأخرى،دون إضافة ذات بال،تخصص لنظرة التَّخيلية في التجربة الشعرية.

ومن النماذج التي يظهر فيها هذا المنحى قول الشاعر التالي:

كان يوما إذ بدا الجدول فيه والخميلة
والأراضي المعشبات كلها تبدو جميلة
وأديم الأرض يعلوه البهاء.
****

كل شيء لفه ضوء السماء قد بدا في العين حلوا وجميلا
جدة الأحلام ولذاذات الكرى
بلسم للقلب في ظل الخميلة.
****

(١)المرجع السابق ١٢٨

كان يوما وتولى ... بعد وأد الأمنيات.
والضياع المُرْ في زمن الشَّتات.
فإذا سَرَّحْتُ طَرْفِي اليوم في تلك المجالي.
لم أجد فيها ولا حتى الطُّيوفا.

إلى أن يقول :

والسهول المعشبات تبدو ساخرات
وبهاء البدر يرثي الذكريات

ويقول شاعرٌ سابق لهذا الشاعر ما يلي :

كان يوماً إذ بدت فيه السَّمَا والأرض
حسناء جميلة
والسهول المشرقات اكتسبت
حسناً ورَيَّا
والخميلات ظلالاً وارفات بين غابات فِسَاح
كل شيء لاح في عيني جميلاً وجميلاً
كان يوماً وتولى

****

لم يعد في الأرض غير الشَّجَن
والأسى المطبق بل وهَوْل الْمِحَن

****

آه !! لو يرجع بي الدهر إلى العهد القديم
كي تهيم النفس بالكون العظيم

****

ويظهر بجلاء من خلال الموازنة بين النصين،أن النص اللاحق يعتمد على الخيال الماثل في النص السابق عليه اعتماداً كبيراً الأمر الذي يبعده عن دائرة الابتكار، وخصوصية الخيال المعبر عن حالته النفسية وذلك مما لا خفاء فيه. ومن الأنماط التي أشاد النقد الغربي بفنيتها في التوسل بالخيال، اعتماد الشاعر على رصد الحقائق في بداية النص أو ثناياه ثم الانطلاق إلى الأخيلة المتممة

لصياغة الأفكار في القصيدة ، والمُعَمِقة للحقائق التي يُرِيد الشاعر ترسيخها في ذهن المتلقي.

ومن هذه النماذج النموذج التالي[1] الذي يقول فيه الشاعر ما يلي :

كل ما في الأرض من مجد أثيل
أو ثراء أو جمال أو فِخَار
****
كلها للقبر تمضي مسرعات
ربما قد نام في القبر قريبا من هنا أو من هناك
شاعر لم يُفتَق بُرْعُمَا
****
أو فارس في الحرب لا يخشى الرَّدى
قام ضد الظلم والطغيان أو صَدَّ العِدَى
كان يوماً ثائراً!!ربما لو كان قد وَاتاهُ حَظَّ
لغير التاريخ أو بلغ الذُّرى
أو هز في أمته أعلى منبرَا
لم يخف شراً ولم يرهب عِدا
****
صامداً للموت والآلام تثرى
أو تصَدَّى ينشر الخير على الأرض فِعَالا
****
فإذا الدنيا نَمَاءٌ وازدهار
وإذا أمته تجني الشَّهي من الثمار
****
ربما...!!!أو ربما...!!!لَكِنَّ حظاً
عاثراً قد حال دون المجد
أو دون المُنَى

(١)المرجع السابق ٢٤١

****

يا حَسْرَة القلب عليه!!!
قد مات في شرْخ الشباب
****

لمْ يَخُنْ حقاً ولم يَطْوِي ضَمِيراً
لم يبع نفساً ولم يمدح أميراً
غاب هذا العبقري دون وعدٍ بالإياب
****

مات هذا العبقري
وتوارى في التراب
*****

قَبْرُه قَبْرٌ قَصِيْ
نادراً من زاره
**

ربما لو عاد للدنيا وعاش بيننا
هز عرش الظلم في غَيْر وَنَى
ثم قاد الشعب للخير الوفير
****

يا دعاة الحق قولوا لِي بصِدْق
أين من يعطي ولا يبغي الجزاء؟
أين من يبذل ويخشى من رياء؟
أين قاضِ العدل من بين القضاة؟
أين واعٍ زاهد في العيش حقاً؟
ترك الدنيا ولم يأسف عليها
لم يُدِرْ عينيه عند الموت للدنيا التياعاً
****

فتَشُوا عن كل ذاك،فتشوا عنه طويلاً
تعبوا!!!تعبوا!!! ثم قالوا كل ذلك لم نجده

****

قلت: للعقل الذي يسكن رأسي هل سمعت؟ هل وعيت؟
قالت: النفس نعم!! قد سمعنا ووعينا قولهم " لم نجده لم نجده"
كل خير في الحياة لم نجده!!
****

قلت للنفس والأسى يملأ صدري وفؤادي
انهضي هيا انهضي
وانزعي ثوب السعادة
واخلعي ثوب الصفاء
ثم قومي وعلى الفَوْر ارْتدِي ثوب الحِدَاد
****

وفي النموذج السابق يرصد الشاعر حقائق ملموسة ثم يتوسل بالخيال؛ليغرسها في ذهن المتلقي.

وفد اتخذ الشاعر من مهارته،ووعيه بفنية الصياغة،سبيلاً للتأثير على السامع والقارئ،وقد ساعده على زيادة التأثير اختياره للموضوع المؤثر ألا وهو الموت وما يترتب على الفقد في النفوس.

ومما عمق الإحساس بمعطيات النص،اختيار الشاعر لنوعيةٍ مؤثرة من الأنماط البشرية التي طواها الرَّدَى وأطْبَق عليها القبر تحت الثرى.

ومن هذه الأنماط الفتى العبقري الملهم،الذي قُضِيَ في شرخ الشباب ودفنت معه الآمال المعقودة عليه وضاع المأمول فيه.

وأعتقد أن الشاعر قد وُفِّقَ في اختيار النموذج البشري الذي تَجَرع كأس الموت؛لأن موت الشاب أكثر في التأثير على المتلقي من موت الشيخ الفاني،وموت الشاب العبقري المأمول فيه الخير،والمعقود بناصيته تَحَقق الفائدة الكبيرة للمجتمع أكثر أثراً على النفس المفجوعة به،من موت الشاب مجهول المواهب،أو الخامل في فكره أو المنحرف عن الطريق السوي.

ومما عمق الإحساس بالأسى كَشْف الشاعر للمتلقي عن الأفعال التي كان من الممكن أن يقوم بها هذا العبقري،فيما إذا لو كُتِبَ له طول العمر على ظهر البسيطة؛حيث يرى الشاعر أنه ربما لو عاش هذا الفتى العبقري الذي ظهرت

الدلائل على تميزه في ربوعها؛وذلك كله عَمَّقَ الإحساس بفقد هذا الشاب العبقري،وشدة ذكائه،وعمق تفكيره، وسداد رأيه ، وقوة شكيمته؛ لَغَيَّرَ من سلبيات الحياة، ومعطيات الرذائل فيها، ومعالجة الكثير من العيوب الكامنة في سلوكيات الأحياء أو البادية للعيان منها،وفي النص يعلوا النداء الموجه إلى أهل الاختصاص،وأرباب الفكر،ودعاة الحق والفضيلة،هذا النداء الذي يحفز الشاعر عن طريقه هؤلاء جميعا،ويحضهم على البحث عن النماذج البشرية السوية في كافة الأرجاء؛لإبرازهم وتكليفهم بقيادة المجتمع الذي سيرقى،ويتقدم على أيديهم؛لفرط إخلاصهم،وحسن سلوكهم،وحَدَبِهم على مجتمعهم،وحُبِّهم له،وحرصهم على رُقيه،والنهوض به.

ولكن يُصْدَم الشاعر عندما يُعْلن لسان حال الجميع عن خيبة الأمل في العثور على النماذج البشرية التي تصلح لقيادة المجتمع،والنهوض به؛وذلك جعله عن طريق الخيال يقوم بتكثيف ما يعمق الإحساس بالأسى والحزن،ويدفع لأعلى درجات القلق واليأس؛حيث يأمر نفسه القانطة وذاته القلقة،بتمزيق ثوب السعادة والهناء وارتداء ثوب الحداد الذي يعلن من خلاله عن فقد المجتمع الذي يعيش فيه للأنماط البشرية السوية التي يُرْجى منها الخير،ويُتَوَقَّع منها التضحية والفداء في سبيل الرُقي،وتقدم المجتمع.

والقصيدة على وجه العموم تقوم على الانتقاء الواعي،والرصد الواقعي والتوسل بالخيال الداعم للحقائق الفكرية،والكاشف عن الهزات الشعورية والوجدانية،التي يموج بها إحساس الشاعر.

وذلك كله حقق للقصيدة عنصر الخيال الجيد الذي ينادي به النقد الغربي ويُطْريه[1].

وعندما يملك القلق زمام نفس الشاعر ويسيطر على لبه وتفكيره يشرد منه النوم ولا يقترب من موطن مضجعه؛الأمر الذي يدفع به إلى بوتقة الإرهاق الشديد،والتعب المضني القاسي الذي لا يطاق،وهنا يدفعه خياله إلى تشخيص النوم ومنجاته بعد تجسيمه،كما ينادي الأحياء،ثم يرجوه ويطلب منه العطف

(١)يراجع كتاب الشعر كيف نفهمه ونتذوقه تأليف " اليزا بيث دور"ص٢٥٨ ترجمة د/محمد إبراهيم الشوش.

عليه،والرفق بحاله والتفضل عليه بالزيارة التي يتحقق عن طريقها جُل الأماني وذروة الآمال.

يقول الشاعر في هذا الشأن ما يلي :

يا نوم يا سِر راحة الورى
ما الذي رَاعَك مِنِّي
تركتني في ظُلمة الليل البَهيم،بل وَلَّيتْ عَنِّي
وتركتني وحدي أُعَنِّي
****

يا نوم!! يا نوم!! خُذ المال الوفير ولا تدعني
أنا متعب أنا مُنْهَك
والثوب ضاق ولم يَسَعْنِي
****

أضحى الحرير على الإهاب كشوك القَتَادِ
لِهَجْرك لي وبُعْدِك يا نوم عَنِّي
****

حتماً سيعلو الموت قِمَّة هَامَتي،إن لم تزُرْني
أتسكن الكوخ الصغير؟وتهجر القصر الكبير؟
وتمتطي ظَهْرَ "الخِضَمَّ" في ساعة الهجير.
لتداعب الصياد،الكادح الفقير...
****

وتترك الأمير
وقصره المنيف
وفرشه الوثير
****

ثم يقول الشاعر في ختام قصيدته :

يا شقوة!!! يَرْزَحُ فيها صاحب الجاه الكبير
ويا غبطة!!! يَرْفُلُ فيها ساكن الكوخ الصغير
****

ومن الوضوح بمكان،توسل الشاعر بالخيال؛لغرس الفكرة التي تمور بوجدانه في ذهن المتلقي.

فالنوم معنى من المعاني،وظاهرة من الظواهر التي لا نلمسها،ولكن خيال الشاعر جعل من النوم شخصية مجسمة عاقلة مالكة لزمام راحة الإنسان، ومتسببة في قلقه وأرقه،وربما تؤدِي به وتدفعه إلى كأس الموت.

والشاعر يرجوا النوم ويستعطفه،ويتمنى زيارته له،وفي ختام قصيدته يَنْدِبُ حظَّه وحَظَّ الأثرياء،وَعِلْيَةِ القوم لحرمانهم من الراحة التي نفرت منهم؛لجفاء النوم لهم وبعده عنهم.

وفي النهاية يغبط الشاعر الفقير الذي يسكن في الكوخ الصغير،وينعم بالنوم الذي يحقق له الراحة ويجدد لجسده النشاط الذي يدفع به إلى مواصلة السعي وطلب الرزق الذي يحقق له الطمأنينة وراحة البال.

(جـ) البناء الفني

اهتم النقد الأدبي بنظرية البناء الفني للقصيدة الشعرية،واختلفت وجهات النظر في شأن التزام الشاعر بهذا البناء وكُنْهِهِ ؛حيث أعفى بعض النقاد الشاعر من الالتزام بأدنى بناء للقصيدة،ونادى هؤلاء النقاد بضرورة التخلي عن محاسبة الشاعر المُتخلي عن البناء الفني في نظمه "العضوي والموضوعي والنفسي"[1] وقد استند هذا التوجه إلى فكرة جنون الشاعر عند نظمه للشعر فكما لا يحاسب المجنون على الأعمال الصادرة منه كذلك لا يحاسب الشاعر على الالتزام بفنية معمار القصيدة أو صياغة أفكارها، ومن باب أولى ألا يحاسب على خلل في البناء أو غيره ،وقد ندد بهذه الوجهة الكثير من النقاد، واعتمد التنديد بهذا الرأي على السلوك السوي،الذي يَتَحَلَّى به الشاعر عند نظمه للقصيدة،أو بعد فراغه منها،هذا السلوك الذي لا يصدر من المجنون بأي شكل من الأشكال،فالمجنون لا يلتزم بنظام،ولا يقدم للمتلقي عملا سوياً أو خطاباً مفيداً،وإنما يقدم هذياناً وعبثاً ، وعملاً لا طائل من ورائه ولا نفع فيه وربما وقع منه الضرر على النفس أو الغير، فهيهات بين حالة الشاعر عند نظمه لقصيدته وحالة المجنون الفاقد لأهْلِيَته ، وغير الواعي بحقيقة الأفعال الصادرة منه.

(١)النقد الفني ص١٨ تأليف د/نبيل راغب – دار مصر للطباعة والنشر – بدون تاريخ

وكان على رأس المنددين بتوجه هؤلاء النقاد الناقد ت٠س٠"اليوت" حيث يقول: "الشاعر المجيد شخصيته سوية لم يصبها الجنون،ولم يمسها عَطَب عند النظم في أي فن من الفنون الشعرية،وكيف يُتّهم بفقدان العقل أثناء النظم وهو قادر على رصف الكلمات ، وتكوين الجمل والعبارات ،وتنقيح النظم، وتجويده، ورسم الصور الشعرية المترجمة عن مشاعره الذاتية، والناقلة لرؤيته في الحياة وسلوكيات الأحياء"ويقول الناقد مستطردا في عرض وجهة نظره(١) لا أدري أي جنون هذا الذي يُتّهَم به هذا الشاعر، الذي يوجه العقلاء والساسة والمفكرين ويُبصرهم بمواطن الخير ومكامن الحسن في الحياة في بعض الأحيان ٠٠٠ويقول أيضا :"إن الذي أعرفه وأقرره أن الشاعر في الواقع المعاش والمشاهد لم يكن مجنونا ألبته ،كما أدعى "لوميروزو"، "ونوردو" وغيرهما ولكن المريض والمصاب بالجنون هو نظر هؤلاء وتوجههم ،العاري من المنطق والخالي من الصواب"٠

لقد برهن النقد الموضوعي ، والرصد الواقعي . في نظر الناقد . على وجود الفرق الشاسع بين هذيان المجنون ، وأوهامه المريضة ، وشطحاته الضارة بالمجتمع، وبين شعر الشاعر الذي يبعث في النفس المتعة، ويغرس في المجتمع ما يرنو إليه مبدعه٠٠٠

لقد تعقل الشاعر وتأمل، وفكر في تجربته الشعرية وحولها إلى كيان قائم بذاته مؤثرٍ على المتلقي ،بينما المجنون لا يستطيع ،ولا يملك القدرة على تنظيم خيالاته وصبها في قالب متعارف عليه، أو مفهوم المقصد لدى المخاطب(٢).

كل ذلك يبرهن على فساد وجهه نظر من يرمي الشاعر بالجنون،ويَعْفِيهِ من المحاسبة، ويبعده عن دائرة النقد في البناء الفني وغيره من المعطيات التي اصطلح عليها أهل الاختصاص٠

وعلى أساس ما ذكر يُحَاسِب النقد الغربي الشاعر على منحاه في البناء الفني ،ويشيد به إن وُفّقَ في تنظيم تجربته طبقا لمعطيات النقد ومصطلحاته، ويَقْدَح فيه وفي إبداعه إذا خالف القواعد المتعارف عليها في البناء ،والصياغة

(١)المرجع السابق ص١٩ وما بعدها

(٢)مناهج النقد الأدبي بين النظرية والتطبيق ص٢١٩ تأليف "ديفيد يتش" ترجمة /محمد يوسف نجم دار الثقافة بيروت ط٣ ١٩٨٠م

والمحاور الأساسية التي يعتمد عليها عنصر البناء الفني لدى هؤلاء النقاد في انجلترا وهي ما يلي :[1]

١- محور النظم الشعري القائم على البناء الفني العضوي الذي تتحدد بدايته وتسلسل الأحداث فيه ،وتتنامى الأفكار في داخله بشكل متدرج من البداية حتى النهاية ،وفي المحور لا يصح للشاعر أن يقدم طورا على طور آخر،أو مرحلة على مرحلة تالية لأن طبيعة النص تقتضي هذا الترتيب ، ولا تقبل غيره ،وفي هذا اللون من الشعر تصبح القصيدة مترابطة، وملتزمة بالمنهج العضوي الصارم الذي يطريه النقد، ويحفز على النسج على منواله[2].

٢- محور النظم الشعري الذي يكتفي بالبناء الفني الملتزم بضرورة وحدة الموضوع هذه الوحدة التي تقتضي أن تدور جميع أفكار القصيدة حوله، ولا تخرج عنه وقد فُضِّلَ هذا المحور في الشعر التأملي الوجداني ، القائم على الخواطر ،ولا يُلْزم النقد الغربي[3] هذا اللون من الشعر بالوحدة العضوية التي أشرنا إليها في المحور السابق، بل يكتفي بإلزامه بالوحدة الموضوعية المصطلح عليها.

٣- محور الوحدة النفسية وفي هذا المحور يبحث الناقد عن الباعث الوجداني الواحد في القصيدة،والعاطفة الثابتة القوية التي يترجم عنها النص،ويشترط في هذه القصيدة توفر الوحدة الموضوعية بجانب الوحدة النفسية عند النقاد[4].

ومن خلال النظر وتأمل الشعر الإنجليزي في الجانب الوجداني منه نجد في هذا الشعر البناء الفني القائم على الوحدة العضوية،والبناء الفني القائم على الوحدة الموضوعية. والبناء الفني الذي تتوفر فيه الوحدة النفسية . وسنعرض النماذج الشعرية التي تبرهن على ما ذهبنا إليه.

يقول الشاعر[1]:

---

(١)المرجع السابق٢٣٥

(٢)المرجع السابق ص٢٢٥ وما بعدها

(٣)مسائل في الفن الشعري المعاصر – تأليف جورج سانتيانا – ص١١٧ ترجمة / سامي الدوربي ط٢ – دمشق ١٩٧٩م

(٤)الشعر كيف نفهمه ونتذوقه ص٧٢ تأليف "اليزا بيث دور" – ترجمة / محمد إبراهيم السوش – مطبعة الميمنة بيروت ١٩٦١م

أطوار عمر الفتى سبعة
يطالعنا أول العمر طفلاً ضعيفاً
يزوم، ويبكي في لحظة ،ويضحك تباعا بضحك لطيف
ويلقي بكل الذي في جوفه
على قلب أم عليه عطوف
****
وينمو وينمو ويَحْمِلْ كِتاباً
ويذهب لدرس برفقة صحاباً
بوجه صبوح كوجه الصباح
****
ويلهث من بعده في لهيب الصبابة
محب يغني غناءً أثير
لجفن سباه،وظبي غواه
عسى أن يراه بجنب الغدير
ويمضي الزمان بذات المكان
ويصبح فذا وصلدا عنيدا
يزمجر في الحرب فَهْداً يصيح ويزأر
يؤرقه المجد وحب البطولة
وإن لاح حتى على فَوْهَةِ الْمدفع
****
وأعجب منه إذا جاء عهد الأناة
وعهد الرؤية
رَأيتَ عليه وقار القُضاة
وَعَيْناً تشع صَرامة
ولِحْيَتَهُ قد شُذبَت بنور الوقار وحزم الرجولة
إذا قال فَالْحِكَمِ الغاليات

(١)دراسات في النقد ص٢٨ تأليف "السين تيت" – ترجمة: د/ عبد الرحمن ياغي

وإن فَاهَ فَالمُثل الشاردات
بذا يستطيب الرجال الحياة
****
ويخطو حثيثا إلي طوره السادس
إلى شبح ناحل العود، يمشي بِخُفٍ، يَمُدُّ على أنفه مِنْظرا
وجَيْباً عميقا بكل رِدَاء
تلوذ به يده في الشتاء
وزرفتْ عيني عليه الدموع
عندما أنكرته ربوع الحياة
وضمرت ساقه
فما هي أهل لجوربه زمان الشباب
وصوت الرجولة الغليظ المهيب تقلص فارتد همس الطفولة
فقدمت شعراً له كرثاء ،لعهد الشباب وعهد العطاء
الذي ولى وراح بلا رجعة
****
وأما نهاية هذا المطاف
فتُدمِي القلوب وتُضْني الفؤاد
لأن الذي كان بالأمس فذا فريداً
وفارس هذا الزمان
وحامي المكان
أضحى طريح الفراش قعيدا
كطفل وليد بغير نماء،بغير رواء
لَفَظَتْهُ الحياة
وهو حَيٌّ يعيش على ظهرها
ومَنْ حَوْلَه قد رأوه عَدَم
وإن سجلوه بقيد الحياة٠

والشاعر في قصيدته السابقة يتوسل بالبناء الفني القائم على الوحدة العضوية التي تتخذ من التسلسل المنطقي سبيلا لتحققها في العمل الشعري٠

لقد عرض الشاعر أطوار حياة الإنسان فتحدث عن بداية هذه الحياة ،والتي تتمثل في عهد الطفولة التي يتصرف فيها الطفل على ضوء إملاءات البراءة ،فهو يزوم ويبكي ويضحك في لحظات متتابعة بغير حساب لتقاليد أو مراعاة لمقتضيات الأحوال المرعية في المجتمع الذي يعيش فيه٠

وبعد أن تحدث الشاعر عن طور الطفولة البريئة نقل للمتلقي حديثه عن الطور التالي الذي يليه والذي يتمثل في طور التعلم واكتساب مهارات الكتابة والقراءة والفهم للتأهل لخوض خِضَم الحياة، والولوج في بحرها العميق الغور، ثم ينتقل الشاعر إلى الحديث عن التغيرات الطبيعية التي تطرأ على تركيبة جسده ،ومكوناته في المرحلة التي تلي المرحلة السابقة٠

هذه المكونات التي تدفع به إلى بوتقة التفكير في الجنس الآخر،والتفكير في لفت نظره إليه بالغناء،والعزف في الجو الرومانسي الآسر،وبعد أن يكشف الشاعر للمتلقي عن طور الحب والهيام وفورة التفكير في الجنس الآخر،يعرض أمامه صورة الإنسان المقاتل ، المخاطر، المضحي الذي يُقْدِمُ على الموت ليتحقق له المجد ويفوز بلقب البطولة٠

وبعد ذلك يعرض الشاعر على المتلقي صورة هذا الإنسان بعد أن تتحقق له أهدافه، ويتملك ذمام الأمور،ويبلغ حد الالتزام ، ويعيش طور الأناة الذي تبدو فيه صورته الراسية الرزينة المتأنية الوقورة، التي تتصف بالحكمة وتصدر منها الألفاظ التي تتكون منها الجمل والعبارات التي تصلح للإقتداء بها والاحتذاء بصياغتها ومضمونها٠

وبعد عرض هذا الطَّور طَّور الأناة، والتأني ،والوقار، والروية يعرض الطَّور المؤثر على المتلقي المؤلم ، الذي يدفع للتعاطف معه، هذا الطَّور الذي يظهر فيه الإنسان ضعيفاً،واهن القوة ، ومعتل الجسد، ونحيل الأعضاء ، حتى أن الملابس التي كان يرتديها في الشباب تتكر هذا الجسد؛ لفرط الضمور الذي أصابه ،وفي الختام ينقل للمتلقي الطَّور الأخير المؤثر على النفس الذي يدعو للعطف والشفقة على هذه الشخصية التي كان لها مالها،وعليها ما عليها في السابق،وأضحت كليلة الجسم، معاقة التفكير،مشلولة الحركة،تلفظها الحياة،ولا يعيرها من حولها اهتماماً يذكر، بل يجعله شيئاً مهملاً على الرغم من وجوده على قيد الحياة٠

والقصيدة السابقة تتوسل بالشكل الفني القائم على البناء العضوي الذي لا يسمح للشاعر تجاوز الترتيب المعهود للأطوار المعروضة حيث لا يسمح له بأن يقدم طور الأناة والروية على طور الطفولة مثلاً، ولا طور الشيخوخة على طور الشباب،واعتقد أن توفر الوحدة العضوية في النص السابق واضحة وجلية ومتوافقة مع رؤى النقاد في الغرب في هذا الشأن٠

وفي قصيدة شعرية تحت عنوان عذاب "الشك" يقول الشاعر الإنجليزي ما يلي[1]:

ها هي زوجتي قد أقبلت
رَبَّاه هل حقا بقلبي عذرت
ليتني قد كنت في جهل بمسلكها المشين
أيضير المرء أن يُسْلَب شيئا
ليس يدري عنه شيء
****
أتراها بَشْرَتي هي التي قد نفرتها
أم ترى أن حديثي لم يكن عذبا
لديها٠٠ كأحاديث الندامى
****
وَيْحَ نفسي!!
لا أصدق لا أطيق
ويح نفسي لا أُكَذِبُ ما سمعت
من خئون،لا أكذب ما سمعت من الصديق
****
كنت قبل الشك في عيش رغيد
حُبُّهَا في القلب ينمو ويزيد
كان ليْلِي في هواها نِعْمَة
ونهاري كان يمضي نسمة

(١)الشعر الإنجليزي والتجربة تأليف"أرشيبا لدمكايس" ص١٢١ ترجمة / سلمى الخضراء الجيوشي ط١ اليقظة العربية ببيروت ١٩٦٣م

وسلوكي مستقيم،وحديثي حكمة
هي أنْسي وصفائي
هي زهر في ربيعي،هي دفء في شتائي
لم تلحْ في عينها غير صفاتي
لم تزُقْها في الورى غير سماتي
ثم جاء الشك يخطو
يَتَهَادَى يَطْرُقُ البَابَ بِعُنْفٍ
يتمادى٠٠٠يدخل البيت٠٠وعلى الصدر ينام
ويبدد أمنيات
بعد أن ضاع الوئام
وتشتت كل حسن في حياتي
****
فإذا ما أصبح الشك يقينا
وبدا لي أنها كانت بَغِيًّا
سوف ألقيها إلى هوج الرياح
لِعَوادِي القدر
لا أبالي أنها كانت شِغَاف القلب في
عهد الهوى
****
آه!!قد وَلَّى الرِّضَا بعد أن كان في
القلب استقرَّ
آه قد مضى عهد الهناء والسكينة
آه! قد مضى عهد المحبة
وانْتشَى عهد الضَّغِينة

والشاعر في النموذج السابق يكابد آلام الشك، ويعاني من المتاعب النفسية التي كادت أن تودي به٠

وجميع أفكار النص تدور حول موضوع الشك،وما ترتب عليه من الآثار النفسية التي ملكت عليه حياته التي كانت مستقرة وهانئة قبله٠

وذلك يجعلنا نحكم عليها بتوفر الوحدة الموضوعية فيها ،هذه الوحدة التي عَرَّفَ بِها النقد الأدبي الغربي،وطبقها على الكثير من الشعراء المبدعين[1].

وعندما تسيطر على الشاعر حالة نفسية"ما" وتتملك أقطار ذاته ، ويمور بها وجدانه،وتهتز مشاعره ينطلق من خلالها،ويستطرد في الحديث عنها من بداية القصيدة وحتى نهايتها،وذلك ما اصطلح عليه النقد الغربي بمصطلح الوحدة النفسية،[2] ومن النماذج التي تتجلى فيها الوحدة النفسية هذه القصيدة التي يقول فيها الشاعر ما يلي :[3]

كُرُوب الحياة علي توالت
وصالت بساحة نفسي وجالت
وطالت شغاف القلوب
****
وأدمت فؤادي خيانة خِلِّي
رفيق حياتي بكل الدروب
صديقي وحِبِّي وملجأ نفسي عند الخطوب
وَعَزَّ على النفس وَأد الأمل
على يَدِ غِرٍّ جَهُول حَقير
****
كُرُوب الحياة كُرُوب ثقال، وَهَمٌّ وَغَمٌّ
أحال نعيم الحياة شقاء
وصوت المغني أضحى عويلا
ونور الصباح بدا كالظلام
بظلم الطغاة ، وقمع العتاة
وسجن الأباة بِجَور الْحَكم
****

(١)راجع تشريح النص ١١٤
(٢)دراسات في النقد الأدبي تأليف "السين تيت" ص٣٠٥ ترجمة د/عبد الرحمن ناغي – منشورات معارف بيروت٠
(٣)المرجع السابق٣٠٦

ترفق عزيزي ، ولا تَتَّهمني
بضعف العزيمة عند المِحَنْ
فمن ذا يَطِيقُ بطش الغشُوم؟
وبعد الرفيق
وغدر الصديق وظلم البشر
وطول انتظار العدالة بِصَالَةِ حُكْمٍ
على رأسها ترى من غدر
وغطرسة من جهول حقود
على الشاعر الفذّ والمبتكر
ومن ذا يظل طوال الحياة
ينوء بعبء الكُرُوب الثقيل
وغيره يمضي بِرَكْب الرياء
ليمحق كل رُؤانا النبيلة
ويعزل من يَسْتَطِيب العدالة
****

وفي النموذج السابق يتملك الشاعر الأسى، ويلفه الضيق،ويتأجج في نفسه الحزن،نتيجة توالي المصائب عليه والمحن،هذه المحن التي دفعت مشاعره للثورة، ووجدانه للاهتزاز العنيف،الذي جعله ينطلق بالشعر المعبر عن هذه الحالة٠

وفي النموذج يظهر بوضوح دوران الأفكار الحزينة حول الفكرة الأساسية وتفاعلها معها منذ البداية وحتى النهاية وذلك ما صنفه النقد الغربي تحت الوحدة النفسية كما ذكرنا من قبل وقد استطاب توفر هذه الوحدة في النص الأدبي العديد من النقاد٠

ومن خلال عرض كل ما سبق في محور البناء الفني يمكن القول بأن الشاعر الإنجليزي في منحاه الشعري الوجداني النبيل،قد توسل في بناء بعض قصائده بالوحدة العضوية،التي تتخذ من التسلسل المنطقي الصارم للأفكار،سبيلاً للبناء الفني٠

وفي ضوء هذا البناء جاءت الأفكار متتابعة تتابعاً منطقياً،لا يسمح بتقديم فكرة عن فكرة أخرى ٠

واتخذ الشاعر أيضاً من فنية البناء القائم على الوحدة الموضوعية طريقاً لنظم بعض النماذج الشعرية المعبرة عن أفكاره،والناقلة لمشاعره تجاه مُعطيات الحياة وسلوكيات الأحياء،وفي هذه النماذج التزم الشاعر بالموضوع الواحد الذي تدور حوله جميع الأفكار التي تنطوي عليها القصيدة ٠

هذا وقد جاءت بعض نماذج الشعر الوجداني النبيل في الشعر الإنجليزي،منسوجة على منوال الوحدة النفسية التي أشاد بها النقد الأدبي الإنجليزي،أعجب بمنهجها٠

۞۞۞

الْخَاتِمَة

بفضل من الله وبتوفيق منه تعالى انتهى الحديث عن بحث:
"المنحى الوجداني في الشعر الإنجليزي النبيل" وقد توصل البحث المذكور إلى نتائج من أهمها ما يلي:

. جرد الكثير من النقاد العرب الشعر الغربي بوجه عام والشعر الإنجليزي بوجه خاص من الأشعار التي تحمل الأفكار النبيلة ، والغايات السامية دون استناد إلى حجة قوية ، وبغير اعتماد على دراسة علمية .

ـ نـدد هؤلاء النقاد بالشعر الإنجليزي ومن يتأثر به من الشعراء؛لما فيه من الانحراف المخزي الهادم لصرح الإنسانية ، والقيم التليدة في المجتمع في نظرهم .

اهتز وجدان الشاعر الإنجليزي لمعطيات الطبيعة الصامتة والصائبة وعبر من خلالها عن الأفكار النبيلة التى تمور بذهنه .

. فأمَّل الشاعر الوقت والزمن والتقط منه اللحظة التي تتوافق مع حالته السعيدة أو التعيسة ،وكان لوقت الغروب نصيباً في إثارة وجدان الشاعر المعبر عن الضياع وفقدان الأمان بسبب سلوك الأنظمة القمعية التي ينادي بسرعة التخلص منها قبل فوات الأوان وغروب شمس العمر الذي أوشك على الانتهاء.

ـ ومن خلال الدراسة تجلى بوضوح تأمل الشاعر الإنجليزي لعنصر المكان، والتجول في معطياته؛ ليتخذ من بعضها ما يتواءم مع ظروفه النفسية.

– قدَّر الشاعر القرية ،ورفع من شأن الحياة فيها، وأشاد بقاطنيها ،وفضلها عن سائر الأماكن المتحضرة في المدن الكبرى الملوثة بالاحتكار وسيطرة رأس المال واستعباد العمَّال ،وإهانة الضعفاء من قبل المتغطرسين والحمقى،لقد كانت القرية لديه مصدراً للسعادة والراحة النفسية ومنبتاً للنقاء والصفاء ومنبعاً للفطرة السليمة ،وأساساً للغرس والنماء، وطالب من خلال إحساسه بها بضرورة التمسك بالحياة فيها والارتقاء بها ،والاهتمام بأهلها البسطاء.

– ترجم الشاعر عن مشاعره تجاه النموذج البشري الأبيض ومسلكه المشين تجاه الشخصية السوداء ورَفَض من خلال أشعاره الوجدانية مبدأ سيادة الأبيض على الأسود واستعباده له لمجرد اللوم ،وانتهى إلى أن مرجع المفاضلة بين

الأسود والأبيض لا يكمن في اللوم وإنما يكمن في مدى العطاء المقدم من نموذجين الذي يدفع بالبشرية إلى الانصهار في بوتقة الرقي والارتقاء.

ـ كان لسلوك الأم السوي المشرف أثراً بالغاً على وجدان الشاعر حيث كشف من خلال أشعاره الذاتية عن تقديره لمسلك هذه الأم وتعاملها مع معطيات الحياة وأنماطها وطوارئ الأحداث فيها لحكمة فائقة واقتدار بالغ هذا من جانب ومن جانب آخر نفر من سلوك المرأة غير السوي وندد بمسلكها المحرر الفوضوي الذي لم تجني منه البشرية غير الأوصاب والأمراض والتفكك والتشتت والخراب والحسرة والندم .

ـ سجل الشاعر من خلال إحساسه بالمشاهد العديدة التي تصدر من الشبان الأسوياء والفتيات وسلوكهم المُشَرِّف الداعم للقيم بعض هذه السلوكيات وأشاد بها ونادى

بضرورة انتشارها في المجتمع وكان من أبرز هذه السلوكيات نفور الفتاة من الرذائل وحرصها الشديد على التفرغ لخدمة والدها المسن وتفضيلها لتلك الخدمة عن الالتفات للمحب وللعاشق المتعلق بها .

ـ كان لِرَجُلِ الدين نصيبٌ وافرٌ في وجدان الشاعر الإنجليزي حيث أشاد به وقدره أطرى سلوكه .

ـ وتعاطف مع القاضي المكلوم ، المعزول ظلماً ، والْمُكْتَوي بنار استبداد السلطة التي تتدَخل في توجيه خط سير العدالة لصالحها .

ـ تطابق الشعر الوجداني في الكثير من النماذج وتوافق مع مصطلحات النقد ومعطياته والتي من أهمها:"مصطلح التناص" "ومصطلح البناء الفني" للقصيدة الشعرية،"ومصطلح الخيال وفضاء النص" وقد وفق الشاعر في التجاوب مع هذه المصطلحات إلى حد كبير في النماذج التي عرضناها .

ـ وبهذه النتيجة ننه الحديث عن هذا البحث على أمل أن يتحقق منه الهدف المرجو والغاية المنشودة .

والله ولي التوفيق

المصادر والمراجع

–الإبداع في الشعر – سبندر – ترجمة: شاكر عبد الحميد – دار القلم – بيروت – لبنان – ١٩٧٩م٠

– الأدب الإسلامي قضية وبناء – السيد أحمد خليل – عالم المعرفة – بيروت – ١٩٨٣م٠

– الأسس النفسية في الإبداع الفني – عز الدين إسماعيل – دار المعارف – القاهرة – ط٤ ١٩٨١م٠

– البنياوية التكوينية والنقد الأدبي – فخري البشري – مؤسسة الأبحاث العربية – بيروت – لبنان ١٩٨٥م٠

– الخيال عند " لورانس دار ليل " – تأليف جوستين – ترجمة سلمى خضراء الجيوشي – دار الطليعة – بيروت ١٩٦١م٠

– الدراسات الأدبية – رئيف خوري – منشورات دار المكشوف ببيروت – لبنان – ١٩٤٥م٠

–الشاعر الإنجليزي في العصر الحديث وعالمه الشعري – تأليف ج.س فريزر ألن – ترجمة محمد سلامة – توزيع ونشر وزارة الثقافة والإعلام – جمهورية العراق ط١ ١٩٨٦م٠

– الشعر الغربي " جورج طتْسن " منشورات وزارة الإعلام ط١ – بغداد٠

– الشعر كيف نفهمه ونتذوقه – تأليف " اليزبيث دور " – ترجمة محمد إبراهيم الشوش – وزارة الثقافة والإعلام – ط١ ١٩٦٩م٠

– الشعر والتجربة " أرشيبلد مكليش " ترجمة سلمى خضراء الجيوشي – دار اليقظة العربية للتأبيف والشعر – بيروت – لبنان ط٠١

– الشعر والتأمل " روستر بيفور هاملتن " ترجمة محمد مصطفى بدوي – المؤسسة المصرية العامة للترجمة والنشر ط٠١

– الشعر والمجتمع " هربر تريد " ترجمة فارس متري ظاهر – دار العلم للملايين – بيروت – لبنان – ١٩٦٣م٠

– الشعر – تأليف لويز يوجان – ترجمة سلمى خضراء الجيوشي – دار الثقافة – بيروت – لبنان – ١٩٦٣م٠

– الصورة الشعرية في الغرب – سيسل ديلوس – ترجمة أحمد ناصيف – منشورات وزارة الثقافة – بغداد ١٩٨٢م٠

– القصيدة الشعرية الإنجليزية – تأليف سبندر – ترجمة أحمد هريدي – توزيع وزارة الثقافة والإعلام ١٩٨٦م٠

– القيم الروحية في الشعر – ثريا ملحس – دار الكتاب اللبناني – بيروت – ط١ ١٩٩١م٠

– اللغة والأسلوب – مصطفى ناصيف – النادي الأدبي الثقافي – جدة ١٩٨٩م٠
– النقد الأدبي في الغرب – الصافي العبيدان – دار الفنون – بغداد – ١٩٨٥م٠
– النقد الفني – نبيل راغب – دار مصر للطباعة والنشر ط١ بدون تاريخ٠
– النقد الأدبي ومدارسه الحديثة – ستتالي هاينيد – ترجمة – محمد يوسف نجم – دار الجيل ببيروت٠
– " أنثرو بلوجيا الحداثة " تأليف: رافيد لوبرثون – ترجمة محمد عزمي ساصيل – المؤسسة الجامعية للدراسات العلمية ببيروت٠
– حاضر النقد الأدبي – محمود الربيعي – دار غريب للطباعة والنشر بالقاهرة٠
– دراسات في النقد تأليف" إيبسن تيت " ترجمة د. عبد الرحمن ياغي دار القلم بيروت٠
– دور الخيال في تصوير الزمن – سمير الحاج شاهين – المؤسسة العربية للطباعة والنشر – بيروت ١٩٨٠م٠
– روابط الفكر بين العرب والفرنجة – تأليف أبو شبكة دار العلم للملايين – بيروت –ط٢ ١٩٤٥م٠
– شعراء عظام من الغرب – سبندر – ترجمة سمير نعيم – وزارة الثقافة بغداد ١٩٨٧
– ملف نادي الطائف الأدبي المطبعة الأهلية في جدة ١٩٨٦م٠
– متى يعود الأدب إلى أصالته – أنور الجندي – دار الأنصار للطباعة والنشر – القاهرة
– من الشعر الإنجليزي – سبندر – ترجمة صومائيل قزمان – مكتبة الآداب – بيروت – ١٩٦٢م٠
– مطلعات في الأدب الغربي – خليل السكاكيني – القدس – ط١ ١٩٢٥م٠
– مدارس علم النفس – فاخر كامل – دار العلم للملايين ط٤ – بيروت – ١٩٧٤م٠
– مسائل في الفن الشعري المعاصر – تأليف جورج سانتيانا – ترجمة سامي الدروبي ط٢ – دمشق – ١٩٧٩م٠
– مناهج النقد الأدبي بين النظرية والتطبيق – تأليف " ديفيد ينسن " – ترجمة محمد يوسف نجم – دار الثقافة – ببيروت ط٣ ١٩٨٠م٠
– نحو نظرية الأدب الإسلامي – محمد أحمد حمدون – دار الفن – جدة – بدون تاريخ٠
– نشأة النقد الأدبي الحديث في مصر – عز الدين الأمين – دار المعارف بمصر ط١ ١٩٧٠م٠

الفهرست

الموضـــوع	رقم الصفحة
المقدمة	١٥
التمهيد	١٧
الفصل الأول (النص الشعري الوجدانى) من خلال معطيات الطبيعة	٢١ : ٤٣
الفصل الثاني (النص الشعرى الوجدانى) من خلال النماذج البشرية	٤٤: ٧٥
الفصل الثالث (الظواهر الفنية من خلال مصطلحات النقد)	٧٦ : ١٠٥
أ- مصطلح التناص	٧٧ : ٨٦
ب- الخيال وفضاء النص	٨٦: ٩٥
جـ- البناء الفنى	٩٥: ١٠٥
- الخاتمة	١٠٦: ١٠٧
فهرست المراجع والمصادر	١٠٨: ١٠٩
فهرست الموضوعات	١١٠